

1

سلسلة بناء الثقافة الإسلامية
من التأسيس إلى الفاعلية

مقدمات منهجية

لبناء ثقافة إسلامية فاعلة

د. حذيفة عكاش



مكتبة الأسرة العربية
ذيارك الافضل للمعرفة الآمنة

الجزء (١) من سلسلة بناء الثقافة الإسلاميّة
من التكديس إلى الفاعليّة

مقدمات منهجية

لبناء ثقافة إسلامية فاعلة

تأليف

د. حذيفة عكاش

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ السلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه...

كثرت في زماننا العلوم، وتوفرت المعلومات، وتعددت المؤلفات، مما يشعر طالب العلم بالحيرة من أين يبدأ؟ وكيف يسير؟ وما هو الحد الأدنى التأسيسي الضروري للمعرفة التي تؤهله؟ ومثله يريد بناء الثقافة العامّة.

فالعلوم والكتب بحر لا ساحل له، وكم يتشتت المرء ويتخبّط في هذا البحر اللجّي، ويضيع وقته وجهده، وربما يضيع عمره ظاناً أنّه بنى ثقافة تؤهله للمشاركة في توجيه الرأي العام، خطيباً أو مدرّساً أو موجّهاً أو كاتباً، وبنائه المعرفي قاصر لا يؤهله لذلك، وأغلب الناس لا يدركون هذه الحقيقة المؤلمة، ينطلقون في نشر أفكارهم القاصرة، وهم يظنون أنّهم يحسنون عملاً!

وتزايد الإخوة الذين يتواصلون معي -مدير مؤسسة فكرية، ومقدم برامج توعوية- يطلبون منّي أن أرشدهم إلى منهاج للقراءة والتثقيف والبناء المعرفي، وكنت قد بدأت بهذا المشروع منذ سنوات، وقدمت محاضرة منشورة على اليوتيوب، ثمّ جمعتها كلّها في كتاب زدت فيه الكثير، حتّى أحيل إليه من طلب منّي ملاحظات منهجية في بناء الثقافة النافعة إن شاء الله.

هذه الملاحظات ما هي إلاّ اجتهادات وآراء أرى رجحانها، هي خلاصة سنوات قضيتها في طلب العلوم الشرعية، ثمّ في بناء الثقافة العامّة، وكثير منها استفدته من علماء ومفكرين صحبتهم أو حاورتهم، أو قرأت لهم، واستفدت منهم عبر رحلة العمر، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وقد قيل لنيوتن:

- كيف رأيت ما لم ير غيرك؟

قال: "صعدتُ على أكتاف العمالقَة".

ولا أدعي أنني رأيتُ ما لم يرَ غيري، لكنّها ملاحظات مهمّة، فتح الله سبحانه -بفضله وكرمه- بها عليّ، ويسّر لي جمعها، ولن يعدم قارئها من فوائد تغيّر منهجه في طلب العلم، وتضيف إليه، ومن هنا تأتي أهمّيتها وهي أنّها (ملاحظات منهجيّة) تتناول العلوم الإسلاميّة والإنسانيّة المكوّنة للثقافة الإسلاميّة.

وهي قابلة للتطوير، لأنّ بناء الملكة العقليّة المنهجية عمل دائم، وليس مشروعاً نقف فيه عند حدّ.

كما أنّ بعضها قابلٌ للقبول والردّ، لأنّها اجتهاديّة.

لكنني على يقين أنّ قارئ الكتاب سيستفيد لا محالة، وسيغيّر أو يعدّل كثيراً من قناعاته، إن كان منفتحاً، لارتفاع الروح النقديّة في الكتاب.

والكتاب سيفتح آفاقاً للحوار والتطوير والتعديل والإصلاح، فإثارة الإشكال والسؤال، كثيراً ما ينفع القارئ الباحث، أكثر من الجواب الذي يطرحه الكاتب، فيطوّر القارئ جواباً آخر، ربما يكون أكثر عمقاً ومناسبة من جواب الكاتب، وهذا ما أريده بالضبط، أن يقدم الكتاب لبنةً في صرح الإصلاح الثقافي الإسلاميّ.

للإمام الذهبي رحمه الله رسالة صغيرة الحجم كبيرة النفع، عنوانها (زغل العلم)، تكلم فيها عن العلوم، وذكر ما في كلّ علم من زغل، وهو الغش، وما خالط العلم من دخل مما ينبغي الحذر منه، كما يقصد عيوب أهل كل تخصص محذراً ومنبهاً، وينطبق كلامه على كثير من أهل زماننا، عافانا الله وإياكم.

كما أنّ للإمام العبقريّ ابن خلدون رحمه الله في مقدمته الشهيرة ملاحظات نقدية مهمة على العلوم ومكانتها، ومنهجية دراستها وتدريسها، وحجم هذا القسم من مقدمته يساوي ٢٣٥ صفحة من أصل ٧٠٠ صفحة (هو حجم المقدمة كلها) أي ما يعادل ثلث المقدمة!

وأرجو أن يكون كتابي هذا استمراراً لهذه السلسلة المنهجية في تراثنا العظيم.

يستهدف هذا الكتاب طلاب العلم الشرعيّ، ثمّ طلاب الثقافة العامّة والإسلامية، كما أنّها ضرورية لمن يريد أن يضع مناهج لمؤسسات تعليمية إسلامية معاصرة، وهي نصائح للغارقين في المجال الثقافيّ، والحائرين في دروب الفكر، فهي معالم في منهج طلب العلم والثقافة.

والكتاب مفيد جداً لمن يودّ تأسيس مؤسسة تعليمية شرعية، أو مبادرة تثقيفية، ففي هذا الكتاب خلاصات وملاحظات مهمة في طريقة تأليف منهاج تعليميّ تثقيفيّ لمن يريد بناء ثقافة أصيلة متصلة بالعصر، وقادرة -بعون الله- على التأثير فيه.

وهي أجوبة عن تساؤلات لا يعرف قيمتها إلا من عانى، إذ (لا يسمع الجواب إلا صاحبُ السؤال) كما قال علي عزت بيجوفيتش رحمه الله.

طبعاً الملاحظات التي ستذكر في هذه الدراسة تفيد من ولاؤه للإسلام أقوى من ولائه للمذهب أو المدرسة الفكرية، أو الحزب أو الجماعة التي ينتمي إليها، ويحرص على إصلاح حال المسلمين، ورفع مكانتهم بين أمم الأرض.

وقد أشار عليّ بعض الأفاضل أن أقسم الكتاب بسبب حجمه الذي انتهى إليه إلى أربعة أجزاء حتى لا يكبر الكتاب فيكسل الناس ويعزفون عن قراءته، كما يمكن أن يقتصر القارئ على قراءة القسم الذي يهمه، فراقت لي الفكرة، وأرجو من الله التوفيق والقبول والنفعة.

د. حذيفة عكاش

المبحث الأول: لماذا بناء الملكة العقلية المنهجية الفاعلة:

أولاً: لماذا هذا الكتاب؟

المُطَّلَع على الساحة العلميّة والفكريّة اليوم يجدها -بفضل الله- في حَرَاك ونشاط استثنائيّ، مقارنةً بقرون الجمود والتقليد التي مرّت على الأُمّة، فحركة الكتابة والنشر -وبخاصّة الكتابات (خارج الصندوق) كما يقال- كثيرة، ومن رحم الكثرة تُولد النوعيّة والجودة إن شاء الله.

ومّا ساهم في ذلك وسائل التواصل الاجتماعيّ، ووسائل النشر، فقد سهّلت النشر بعيداً عن مقصّ الرقابة والحذف والمنع.

لكن رغم ما مضى كلّهُ، فما زالت ثقافة الجمود والتقليد تسيطر على ميادين علميّة وثقافيّة وفكريّة ليست بالقليلة، وأخطرها المؤسّسات التعليميّة، هذه الثقافة تبلورت وتكرّست عبر قرون، فتصلّبت وسيطرت على الحياة الثقافيّة عدّة قرون، فقد نشأ عليها الصغير وشاب عليها الكبير، فتغيّر الثقافة من أعسر الأمور، يقول العبقريّ ابن خلدون رحمه الله تحت عنوان: (كثرة التآليف في العلوم عاتقة عن التحصيل):

"ولو اقتصر المعلّمون على كذا وكذا [يقصد الأساسيات] لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنّه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها"^(١).

هذا وقد أحرزت ثقافة الإبداع والتجديد والتطوير اختراقات لا يُستهان بها، لكنّ قلاع التقليد والجمود ما زالت مهيمنة على مساحات لا يُستهان بها، وبخاصّة في المجالات

(١) مقدّمة ابن خلدون (٢/ ٢٦٧).

المرتبطة بالهوية الإسلامية والعربية، لأن تأثيرنا بها مباشر، بينما بقية العلوم الكونية والطبيعية والتجريبية فنحن فيها عالة على غيرنا، مما سمح بتطويرها لاعتمادها على علوم الأمم المتطورة ولا مجال لمقاومتها، أو الاكتفاء بما عندنا منها، ولعدم الشعور بأن ما يأتي من عند القوم من هذه التخصصات غزو فكري!

فالمطالع في كثير من الإنتاج العربي يجد كثيراً من المعلومات المكررة، وكثيراً منها لا حظ له من التمحيص والتحقيق، ولم يتطور بالنقد المستمر.

من أهم أسباب ذلك الرغبة في تكديس المعارف - على كثرتها - وذلك على حساب نوعية تلك المعارف وفعاليتها، وإعمال العقل فيها، مما يخلق بيئة ترسخ الجمود والتقليد.

وكم يتساءل طالب العلم الشرعي والثقافة الإسلامية عن برنامج ومنهج يطلب - في ضوءه - العلم ويكون ثقافته.

حيث يقتصر أغلب طلبة العلم على الجمع والتكديس للأفكار والمعلومات، وحفظ تلك الأفكار وتكرارها، والتفنن بنشرها، والدفاع عنها، وإن كان متفوقاً وبارعاً أفرغ جهده في التدليل والاحتجاج والتمثيل والشرح لما حفظه!

وما نسعى إليه هو الانتقال إلى صياغة ثقافة واعية، تكون عند صاحبها ملكات تجعله قادراً على تصوّر صحيح للواقع، وتقييم دقيق له ومقدرة على اتخاذ قرارات صحيحة وفاعلة وفق السنن الكونية ومعرفة طبيعة الأشياء التي يفهمها المرء من المختصين وذلك من خلال الثقافة العامة والتأمل.

فهذا البحث يطمح إلى تكوين مثقف فاعل يتسلح بالمعارف النوعية، التي من شأنها أن تعينه على المشاركة الفاعلة في واجب التأثير والإصلاح، والإبداع والإضافة المعرفية في مجال تخصصه، وعدم الاقتصار على تكرار ما حفظه من علوم!

فعلى المثقف وطالب العلم أن يطلع على مجموعة علوم ويهضمها، ويستخرج العلاقات بينها أسباباً ونتائج ومؤثرات مختلفة للقضية الواحدة التي يدرسها، بدل أن يراها من منظور واحد بتخصّص واحد.

فكلّ علم يحلّل الحادثة الواحدة من جهته وتخصّصه ورؤيته وزاويته، وعند تعدّد العلوم التي يتسلّح بها المثقف تصبح رؤيته للظاهرة التي يعالجها (بانورامية)، فيراها من الزوايا كلّها، بأبعادها وتحليلاتها كلّها.

فالظاهرة الواحدة تؤثر فيها -عادة- مجموعة عوامل بنسب متفاوتة، والمتخصّص ينظر للأمر من زاوية تخصّصه، فيحلّله تحليلاً قاصراً، أمّا المثقف صاحب المشاركة بعدّة علوم فإنّه ينظر إلى الموضوع الواحد من زوايا مختلفة، فيخرج برؤية شاملة أقرب إلى الصواب والموضوعية، فيكوّن من نظراته مزيجاً جديداً طيباً نافعاً، كالنحلة تأكل من الثمرات كلّها، لتخرج شرباً سائغاً للشاربين، فيه شفاء للناس.

ثانياً: معاني الثقافة:

اصطلاحاً: للثقافة أكثر من ١٥٠ تعريفاً، كثير منها متشابه، لكن ما يهمننا هنا معنيان:

معنى الثقافة الأوّل:

(ثقافة المجتمع):

الثقافة: معنى عامّ مركّب من المعارف والعقائد والأفكار والفنون والأخلاق، والقوانين والعادات والأعراف والتقاليد، والسلوكيات وطرائق العيش، التي تميّز مجتمعاً ما أو جماعة معينة (٢).

٢ () ينظر: "تجديد الوعي"، د. بكار، ص ٢٢٥

فالثقافة هي الصفات المميّزة لمجتمع عن غيره من المجتمعات، أو لجماعة عن غيرها، أو لأسرة عن غيرها، أو فرد عن غيره.

فثقافة مجتمع هي هويّته، وبصمته الخاصّة، التي تمكّننا من التفريق بينه وبين غيره من المجتمعات، وهذه الثقافة فيها الصواب وفيها الغلط، وفيها ما لا يمكن وصفه بصواب ولا غلط، بل هو اختيار من بين خيارات أخرى.

وعوامل تشكّل الثقافة بهذا المعنى كثيرة منها: الدين والبيئة والعلوم والخبرات والاحتكاك بالأمم الأخرى.

وهي متطورة ومتغيّرة، منها جوانب صلبة، ومنها جوانب مرنة، وفيها جوانب حضاريّة، وفيها جوانب متخلّفة، ومنها الجوانب العلميّة ومنها المبنية على التوارث والتقليد المحض، المبنية على الجهل والخرافات والأساطير.

وهي قويّة بحيث تهيمن على أفراد المجتمع، حيث يتمّ تلقّيها في الأسرة منذ ولادة المرء، ثمّ يساهم المجتمع كلّ في تكريسها، ووسم الأفراد بها، حتّى يموت المرء، وتتوارثها الأجيال.

وهناك ثقافة بسيطة يتمّ تداولها تلقائيّاً، وهناك ثقافة منظّمة مدروسة يتمّ التخطيط لنشرها.

أمّا الأفراد، فمن تعريف الثقافة يتّضح لنا أنّ كلّ فرد ينتمي إلى جماعة، يحمل معه ثقافة تلك الجماعة، بشكل أو آخر، بغضّ النظر عن مستوى علمه ومعرفته.

ومهمّة المصلحين والمثقفين والمتعلّمين إصلاح الأفكار والسلوكيّات الخاطئة، والارتقاء بالموجودة إلى الأفضل، أي العمل على تقويم وإصلاح ثقافة المجتمع بشكل مستمرّ.

فتغيّر الثقافة يتمّ بشكل أسرع عند المتعلّمين والمنفتحين من الأفراد، ثمّ تنتقل هذه الإصلاحات الثقافيّة من النخبة إلى عامّة أفراد المجتمع بشكل متدرّج.

معنى الثقافة الثاني:

وهو المعنى المقصود في كتابنا.

المعارف والعلوم والمهارات المطلوبة لتكوين الإنسان المثقف، وهو الشخص الذي تجاوز تخصصه، ووسّع دائرة اطلاعه وقراءاته واهتمامه، بحيث يحصل على رؤية شاملة للواقع والنظريات والأفكار الإنسانية، حتى يصبح أكثر تأثيراً بلسانه وقلمه، فيمتلك مجموعة أفكار إصلاحية وعلاجية من أجل بلوغ مجتمع أفضل.

تعريف المثقف المسلم:

هو الذي زاد على الماضي، باطلاعه على العلوم الإسلامية واستوعبها وهضمها، وانطلق بأرائه في ضوء ضوابط الإسلام ومبادئه وتصوّراته الكبرى، وحمل هموم أمته وآمالها وقضاياها الكبرى.

من أكبر مهام المثقف إنتاج فكر جديد، لحلّ أزمة حالية أو مستقبلية متوقعة. ونلاحظ أنّ رفع جودة الثقافة بالمعنى الثاني (العلم والمعرفة) تؤثر إيجابياً على رفع جودة الثقافة في المجتمع بالمعنى الأوّل (الأفكار وطريقة الحياة).

تعريف الثقافة الإسلامية:

هي مجموعة المعارف والمعلومات النظرية، والخبرات العملية المستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، التي يكتسبها الإنسان، ويحدّد على ضوئها طريقة تفكيره، ومنهج سلوكه في الحياة^(٣).

ثالثاً: معنى المثقف وغيره من الألقاب المشابهة:

سنعرّج على تعريف بعض الألقاب التي تطلق على أشخاص يعملون في الحقل الثقافي والتوعويّ الإصلاحيّ، فكثيراً ما يتمّ الخلط بين هذه الألقاب التي يكثر ذكرها، وما سنذكره

٣ () ينظر: " الثقافة الإسلامية "، د. مصطفى مسلم.

من تعريفات هي اصطلاحات وألقاب أغلبية قد تنطبق على غالبية، وقد لا تنطبق على بعضهم، لكنّها اصطلاحات تقدّم فروقاً واقعية واضحة بين هذه الألقاب، ومعرفة هذه الفروق تساعدنا كثيراً خلال بحثنا.

المختصّ:

طالب علم تخصص بدراسة علم من العلوم، وصرّف فيه جزءاً من عمره (مختصّ بالتاريخ أو الكيمياء مثلاً).

العالم:

شخص برع في اختصاص من الاختصاصات، حتّى فاق أقرانه فيه، أو هو بين المتفوّقين بذلك الاختصاص، فهو متبحّر في اختصاصه بشكل واضح.

الداعية:

شخص لديه علم وفكر وهمّ إصلاحيّ، نشاطه الأساسيّ التبليغيّ والتذكيريّ والهداية، ودفع الناس في طريق الصلاح، لا يُنتج -غالباً- الأفكار والمفاهيم.

المصلح:

شخص لديه رؤى وأفكار إصلاحيّة ذات طابع (سياسي اجتماعي أخلاقيّ) يستند عادة إلى ثقافة وعقيدة أمّته، لديه أفكار، لكن يغلب عليه النضال لا التنظير الفكريّ.

المثقّف:

شخص تجاوز اختصاصه، ووسّع دائرة اهتمامه، على صعيد القراءة والتأثير (بلسانه وقلمه)، فهو يعرف شيئاً عن كلّ شيء، ويمتلك بعض الأفكار التقنيّة والعلاجيّة، احتكاكه بالجمهير أقل من المصلح والداعية.

المفكّر:

هو مثقف يستخلص من الماضي الدروس، ويفهم الواقع بعمق، ويستشرف المستقبل، ويشغل بتوليد الأفكار وإنضاجها، بشكل مستمر، وهو أقل من الفيلسوف، وأعلى من المثقف.

الفيلسوف:

الفيلسوف أكثر تجريداً من المفكر، يلبي حاجات العقول، ويضع المفاهيم، ويعمل بالكميات، يولد الأفكار والنظريات الكبرى^(٤).

رابعاً: من التكديس إلى التفعيل:

المقصود بالتكديس:

المقصود بالتكديس جمع المعلومات وتخزينها وتراكمها، هناك عبارة كثيراً ما يكررها أستاذنا الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله وهي قوله: (نحن مفتونون بالكمية على حساب الكيفية!).

والمقصود بها هنا كثرة الصفحات والكتب المقروءة، وكثرة المحفوظات، ففلان يحفظ كذا وكذا جزءاً من القرآن الكريم، وعلان يحفظ القراءات العشر، والقراءات الشاذة الأربعة، وفلان يحفظ كذا كذا بيتاً من الشعر، وفلان عنده في اليوم عشرة دروس، وألف كتاباً من ٨٠٠ صفحة، أو كذا وكذا مجلداً، وسجل مئات الساعات الصوتية..

لا شك أن المحفوظات والكميات ينتج عنها النوعيات، لكن أين تركيزنا على النوعية؟ ما نوع الكتب التي أقرأها؟ هل فيها معلومات جديدة صحيحة ومنهجية؟ أم أنها مكررة ليس فيها إضافة تذكّر؟!

^٤. للتوسع أكثر في فهم هذه المصطلحات ننصح بالرجوع لكتاب أستاذنا الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله: "تكوين

المفكر.. خطوات عملية"، ص (١٧).

هل بنيتُ ثقافةَ مدرّوسةٍ منهجيّةٍ، بحيثُ تغطّي لي ما أحتاجه من علومٍ ومعارفٍ؟ حتّى تتكامل عندي الصورة ويصبح فهمي للحياة عميقاً؟!

ما الإضافة العلميّة التي أضافها صاحب الكتب الكبيرة؟!

وفي طيّات الكتاب سيستبين للقارئ الكريم هذا المعنى بجلاء، فهذا الكتاب سيركّز على هذه النقطة كثيراً، وسيكشف الكثير من آفات الاغترار بالكميّات! أصبح عصرنا يغرقنا بالمعلومات، وتحوّلت كثرة المعلومات من ميزة جيّدة إلى حال سلبية، فقد غرقنا بالمعلومات، حتّى سمعنا من يصف ركام المعلومات وسيله الجارف بأكوام النفايات!

وأصبح عندنا مشكلة التمييز بين هذه المعلومات، صحيحها من خاطئها، وصادقها من كاذبها، ودقيقها من جُزافها.

وفي ظلّ كثرة الكتب والمؤلّفات، والمقالات والموسوعات، والمواقع والفيديوهات، أصبحنا بحاجة لخارطة طريق ترشدنا وتدلّنا على ما ينبغي علينا قراءته، وما يجب علينا تجاوزه، حتّى نكون ثقافة منّظمة مفيدة.

إذن المقصود بالتفعيل:

بناء عقلية منهجية من خلال بناء ثقافة متكاملة (مدرّوسة بعناية)، تُكسب صاحبها هذه العقلية المنهجية، فتعطي العقل الفعالية والكفاءة المطلوبة، بحيث يصبح صاحبها -لو ترك دون تدخل- ذا نظرات أعمق للتاريخ والواقع والمستقبل المتوقّع والمتخيّل أي المثاليّ المطلوب، وكيفية تحقيق ذلك المستقبل المنشود، فكلّ علم يُكسب صاحبه عقلاً، كما سيأتي معنا من قول ابن خلدون رحمه الله في مقدّمته.

سنركّز على علوم تعطي صاحبها قدرةً ومَلَكةً في الفهم والإدراك العلميّ المنهجيّ، فينتقل طالب العلم من تكديس المعلومات الذي لا ينتهيّ، إلى (توليفة علميّة) يمكن توظيفها وتفعيلها والاستفادة القصوى منها، ف(ما قلّ وكفى، خيرٌ ممّا كثر وأهَى).

خامساً: أهميّة المنهج:

تعريف المنهج:

هو المسار الذي يسلكه الإنسان لتحقيق هدف ما، ونقصد به مجموعة من القواعد والقناعات والأفكار والإجراءات والخطوات، التي يتبّعها أفراد يعملون في المجال نفسه للوصول إلى أهدافهم.

وأقصد بالمنهج هنا العقلية والمنهجية وطريقة التفكير والملكات، فهي مجموعة القواعد التي يلجأ إليها العقل عندما يعالج مسألة ما.

والمنهج عمليةٌ نحتيةٌ اجتهاديةٌ دائمة، وليس أنموذجاً جاهزاً مُعدّاً مُسبقاً جامداً، بل هو قابل للنقد والتطوير المستمرّ.

ولبيان أهميّة المنهج يقولون: "من أعطاك معلومة كمن أعطاك قطعة ذهب، ومن أعطاك منهجاً كمن أعطاك منجم ذهب" لأنّ المنهج نبعٌ ثرٌّ لا ينضب، والمعلومات جمع له حدود.

سادساً: هل تكوين الملكة الاجتهادية ممكنة؟

من المعلوم أنّ الاجتهاد نوعان رئيسان، وإلا فهو درجات، أوصلها بعض العلماء إلى سبعة أو ثمانية.

النوع الأوّل: اجتهاد مُطلق، وذلك بأن يضع العالم أصوله وقواعده ومنهجه الذي اعتمده في الاجتهاد والترجيح، ثم يطبّق هذه القواعد منهجاً في استنباط الأحكام واختيارها.

واجتهاد مقيدٌ بمذهب، وهو اعتماد منهج أستاذه في الاستنباط والاختيار، فيبقى انتسابه إلى مدرسة أستاذه.

وتحتته درجات ..

أما سؤال: هل يُطلب من جميع المثقفين أن يصبحوا أصحاب ملكات ومنهجيّات؟
فالجواب: طبعاً لا، ولكن ينبغي أن يكون الهدف من العمليّة التعليميّة بكلّ مراحلها هو
(تخريج مجتهدين)، وكلّ من وقف في الطريق قبل الوصول لهذه المرحلة يعرف أنّه توقف،
وإلا فالطريق أمامه، بإمكانه مواصلة الجدّ في الدراسة والتحصيل، لحين بلوغ تلك المرتبة.
فعلينا أن نرفع السقف، أي: الهدف النهائيّ، حتّى نسعى إليه ونجعله على مراحل، ونضع
له المناهج.. حتّى يتخرّج الطالب في الدكتوراه باحثاً متمرساً في تخصصه، قد حاز ملكة
البحث والنظر والترجيح في علمه وتخصصه، ولو كان اجتهاداً في باب أو مسألة، فالاجتهاد
يتجزّأ، وليس من الضروري أن يكون اجتهاداً مطلقاً عاماً في كلّ أبواب العلم الذي تخصص
فيه، وإنما يجتهد في كلّ مسألة أراد البحث والتأمّل فيها، أما كمّيّة المسائل التي سيجتهد فيها،
فبحسب همّته وجهده ونشاطه، (فلكلّ مجتهد نصيب) كما يقول علماءنا.
فالمطلوب تحصيل ملكة العلوم، وعدم الاقتصار على حفظ مسائلها.

سابعاً: الذكاء المكتسب:

الذكاء نوعان: وهبي وكسبي^(٥) أمّا الوهبي فهو منحة الله تعالى للإنسان، وهو مختلف من
إنسان لآخر، وما يهمننا هنا هو الذكاء المكتسب، فالتمرس بالعلم ومصاحبة العقلاء والعلماء
والأذكياء، تمنح الذكاء وتنميّه، كما أنّ مصاحبة البلهاء والجهلاء تمنح الجهل، وتميت الفطنة،
فقد يلمس الفرد من نفسه ذكاءً بمستوى أقلّ ممّا يرغب، فلا يبيس، بل يتابع ويجتهد، فمن
سار على الدرب وصل.

فلو كان عندنا شخصان:

٥. محمّد عوامة، معالم إرشاديّة لصناعة طالب العلم، ص (٧٦).

الأول: شخص ذكيّ جداً بالفطرة، وأهمل ذكائه، بمجالسته العامة والبسطاء.
والثاني: شخص بمستوى ذكاء عاديّ، لكنّه يخالط العلماء والمفكرين والأذكياء ويقرأ
ويتعلّم ويتدرّب.

مع الأيام سيتفوّق الثاني على الأول بمراحل، حتّى لا يمكن المقارنة بينهما.
وفي القصة الرمزيّة: (سباق الأرنب اللاهبيّ، والسلحفاة المجدّة) عبرة.
فالتفكير مهارة مثل أيّ مهارة، يمكن تطويرها، ورفع كفاءة العقل فيها، كي لا نبقى أسرى
الذكاء الوراثيّ، فالذكاء صحيح إنّه فطريّ، لكنّه ينمو بالتعلم المستمرّ، وحلّ المشكلات
الاجتماعيّة والعاطفيّة والاستماع والقراءة، والتعلّم من تجارب الآخرين، وممارسة التحدّيات
العقليّة والتفكير متعدّد المحاور، والمركّب، وحلّ الألغاز وألعاب الذكاء، وبالتركيز العميق.
ولا شكّ أنّ الحفاظ على الصّحة الجسديّة لها أثر لا يمكن إنكاره، فالعقل السليم في الجسم
السليم، وتعلّم مهارات التفكير المختلفة (النقديّ والإبداعيّ والتحليليّ والعلميّ
والموضوعيّ..) مثل تعلّم المهارات اللغويّة والحسابيّة، فإنّها تحسّن هذه المهارات الفطريّة
وترقيها^(٦).

ولكلّ مجال وتخصّص ذكاء وخبرة متراكمة، والتركيز فيها وتعلّمها يرفع الذكاء بهذه
المجالات وينمّيه.

يُروى أن أحد كبار أصحاب أبي حنيفة رحمه الله ناقشه يوماً، وظهرت عليه أمارات التفوّق
والنباهة، فقال له الإمام: (كنتَ بليداً فأخرجتك المواظبة)، أي جئنا عادياً، والآن بعد التعلّم
ومجالسة العلماء ومناقشتهم أصبحتَ نابهاً.

ومن المعروف أنّ حلقة أبي حنيفة رحمه الله كانت مثل حلقات الفلاسفة العظام، تضمّ
طلّابه من الأذكياء والنابهين، وكانت طريقة أبي حنيفة رحمه الله بتعليمهم هي طرح المسألة،

٦. يراجع عنوان: (هل يمكن تقوية التفكير؟) في كتاب أخطاء التفكير، د. حذيفة عكاش.

وفتح المجال أمامهم للنقاش، ثم تدوين خلاصة الآراء، بعد إشباع المسألة بحثاً ونقاشاً، لذلك تجد في كثير من المسائل عدّة آراء لكبار أصحابه.

طبعاً هذا المنهج لا يلتقي مع الإخباريين، ممّن ينشغل بنقل الروايات والأقوال نقلاً، ووصل ببعضهم إلى أن وصف مجلس أبي حنيفة رحمه الله بأنه (مجلس لغو لا وقار فيه) ترتفع الأصوات فيه بالنقاش، فيروى أنّ سفيان بن عيينة رحمه الله مرّ بحلقة أبي حنيفة رحمه الله، وسمع الأصوات فجاء إلى أبي حنيفة رحمه الله وقال له: (يا أبا حنيفة! هذا مسجد، وهذا الصوت لا ينبغي أن يرفع فيه) قال: "دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا"^(٧).

ثامناً: الإسلامية: الانتفاء إلى هويّة الأمة والدين الغريب:

المثقف المنشود هو الذي ينتمي إلى هويّة مجتمعه، ويحمل ثقافته الأصيلة والمعاصرة، وإلا كان صوتاً نشازاً في مجتمع مختلف!

مرّت بي فترة فكّرت فيها بتأليف كتاب أجمع فيه الحكم والأقوال المأثورة، التي تحمل معاني راقية، وحكماً بليغة، وقيماً عالية، من كلّ الديانات!

وسبح بي الخيال، وحلمتُ بجمع أفضل ما عند الأديان والمذاهب في العالم من تعاليم وأخلاق وأحكام.. كدين جديد جامع، ثمّ بعد مدّة طويلة عزفت عن هذه الأمنية، وذلك لسبب بسيط، وهو أنّ كليات القيم والأخلاق والمبادئ مشتركة بين البشريّة تقريباً، فلا يوجد دين أو فلسفة (محرّمة) تبيح الكذب أو الخيانة أو القتل أو السرقة أو الزنا.. أو تعتبر ذلك فضيلة!

وبما أنّ كليات القيم والأخلاق مشتركة لدرجة كبيرة بين البشر، فما فائدة أن آتي بكلمة مأثورة أو حكمة لبوذا تحضّ على الصدق وأسوقها في مجتمع مسلم؟!!

(٧) ينظر: "صحيح جامع بيان العلم وفضله" لابن عبر البرّ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري (١/٥٥٥).

لأنّ هذه الحكمة ستعاني كثيراً في اختراق الثقافة العربيّة أو الإسلاميّة، بينما لو جئت بحكمة تقاربها في المعنى، وتوافقها في الهدف؛ وهو الحُصّ على الصدق عن عمر بن الخطاب أو عن الإمام الغزاليّ، أو عن الإمام الدّهلويّ... فستجد هذه المقولة الطريقتَ معبداً أمامها.. لا أقصد هنا إلاّ نستشهد بقول لأحد حكماء الإنسانيّة ف (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها) كما ورد في الأثر الذي رواه الترمذيّ.

وهكذا فهذه التجربة أجد أنّها تعبر عن واجب نُخبنا ومثقفينا ومصلحينا، وهو أن يخاطبوا المجتمع من داخل ثقافته وضميره ووجدانه، ويمرّروا ما يشاؤون من إصلاحات بهذه الطريقة، حتّى لا يقاوم الناس إصلاحاتهم حفاظاً على الهوية!

وهذا لا يعني أن نسكت عن الجهل والانحرافات والبدع والخرافات، بل حتّى مناهضة هذه الأمور تحتاج خطاباً من داخل ثقافة المجتمع، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: ٤] فالإسلام هو المكوّن الأوّل لهويّة الأمة وثقافتها، ولا نهضة للأمة بتجاوزها، فالدين روح دافعة، ومبادئ موجّهة، وقوّة جامعة.

وكلّ أمة تبني حضارتها وفق ثقافتها وهويّتها، وإلاّ كانت حضارتها استنساخاً وامتداداً لحضارة غيرها، وهذا لا تفعله أمة من الأمم التي تحترم نفسها.

وهذا لا يعني الانغلاق على الذات أو التقوقع عليها، فنحن نعاني من تيارين: تياراً استغرابياً يريد استنساخ تجربة الغرب بحذافيرها.

وتياراً تراثياً يريد الانغلاق على الذات، واسترجاع تجربتنا التاريخيّة! وكلاهما خطأ، فلو وسّع علومنا وآليّاتنا ونظّمنا القديمة الاستمراراً لاستمرّت، ولما تجاوزها الزمن، وبالمقابل لا يجوز -ولا يمكن أصلاً- استنساخ تجربة أمة مختلفة عنا.

والحلّ بالحفاظ على عناصر هويّتنا وثقافتنا الأساسيّة، والاقْتباس والاستفادة من علوم غيرنا، وخبراتهم، وصهر ذلك كلّ ضمن حضارتنا المعاصرة.
وذلك مثل إنسان مسلم ملتزم، يسافر ويكبر وينمو ويشتدّ عوده، ويتعلّم ويتهدّب ويكتسب الخبرات لكن ملامحه الأساسيّة هي هيّ، ومبادئه وقيمه الرئيّسة هي هيّ.
والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الثاني: شروط بناء الملكة العقليّة المنهجية:

هنا قد نختلف: هل هذه صفات أم واجبات وشروط؟ أظنّ أنّ الأمر متعلّق بالشخص نفسه، فإن كانت الصفة المذكورة صفة راسخة في نفسه وهو متحلّ بها، فيمكن أن نعدّها صفة له، وإن كان لا يملكها فهي صفة واجبة ينبغي السعي إلى أن يتّصف بها.
ويمكن أن نقسمها تقسيماً آخر، ونسميها تسميةً أخرى، ولا أرى الأمر يستحقّ المشاحة بالاصطلاح والتسمية، ما دمنا متّفقين على المعنى والجوهر، والله أعلم.

أولاً: الانفتاح الفكريّ:

نحن مبتلون بتيّارين؛ تيار الجمود والانغلاق، وتيّار الجحود والانفتاح، فتيّار الجمود يظنّ كلّ صيحة عليهم، ويزعمون الاستغناء عن العالمين، فكّل فكرة غربيّة هي (غزو فكريّ)، يستهدف الدين والعقيدة والهويّة!

وعندنا تيّار الانفتاح بلا ضوابط، ممّن تثقف بغير ثقافتنا وبهر بصره الفكر الغربيّ، فيرى اتباعهم حذو القذّة بالقذّة، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتّى لو سلكوا جُحر ضبّ فعلينا سلوكه!

فعلينا اتباع الأمم الغالبة في فكرهم وفلسفتهم وعلومهم وطريقة حياتهم، وواضح أنّ كلا التيّارين مغاليان.

فالمطلوب: الانفتاح المنضبط، نقبل كلَّ جديد نافع، ممَّا يوافق عقيدتنا، ويتلاءم مع شريعتنا ولا يصادم أخلاقنا ومبادئنا وقيمنا.

طبعاً الانفتاح المطلوب لمن قرأ كتب ثقافتنا أولاً، أي تعاليم دينه عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وتاريخاً ولغةً وفكراً، حتَّى يؤسِّس فكراً يبنى عليه، ويقارن معه، ويجعله أساسه وقاعدته التي ينطلق منها، وإلا فهل نفتح على ثقافة الآخرين، ونغلق على ثقافتنا؟!!

بعضهم يبدأ بالقراءة للآخرين، فيصادف كلام الآخرين وأفكارهم قلباً خالياً فيتمكّن.. وهيهات أن يعود بعدها لثقافتنا ويطلع عليها! يعود وهمّه ازدراء ثقافتنا، وتعظيم ثقافة الآخرين، وهذا ليس من الإنصاف في شيء، فكما نطالب بإنصاف الآخرين، فمن باب أولى أن نطالب بإنصاف ثقافتنا وتراثنا.

قال إمامنا القرضاوي رحمه الله هذا النص الرائع في هذا الصدد:

"إنَّ المسلم الحقَّ ليس ذنباً أو إمعة، يسير وراء الناس حيث ساروا، ويأخذ منهم ما خبث وما طاب، ولكنّه يتطلّع ويتوق ويرنو دائماً إلى الأحسن من كلِّ شيء، وقد أثنى الله تعالى على المهديين العقلاء المبشرين من عباده، فقال: ﴿رَفِشْرَ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وهذا شأن المسلم مع الثقافات والحضارات، إنه يأخذ أحسن ما فيها، ويضمّه إلى ما عنده، ويضفي عليه من روحه، ما يفقده جنسيته الأولى، ويغدو جزءاً من منظومة المسلم الثقافية.

إنّه أشبه في صلته بالثقافات المتنوّعة، بالنحلة، التي تعمل بهدى وحي ربّها إليها، وإلهامه إيّاها، تنتقل بين الأشجار والأزهار، تأكل من كلّ الثمرات الطيبة، سالكة سبيل ربّها ذللاً، ثمّ تمتصّ ما تأكله وتمضممه وتمثله، ثمّ تحوِّله إلى شراب يخرج من بطونها مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس..

وهكذا يستطيع المسلم الناضج الراسخ في إيمانه وعلمه: أن يقرأ ما شاء من الفلسفات، ويطلع على ما شاء من الثقافات، ومنها الثقافة الغربيّة الحديثة، ثمّ يقتبس منها ما يلائم عقيدته ومفاهيمه عن الوجود وعن المعرفة وعن القيم، وما يتفق مع نظرتّه إلى الألوهيّة وإلى الكون والإنسان والحياة والتاريخ، فهو يأخذ ما يأخذ عن بيّنة، ويدع ما يدع على بصيرة.

يستطيع المسلم الحقّ أن يقتبس ما يراه حقّاً من المنهج الشكّي لديكارت، ومن مثاليّة هيجل، ومن مادّيّة ماركس، ومن وضعيّة كونت، ومن نشويّة دارون، ومن تحليل فرويد، ومن مجتمعيّة دوركايم، ومن واجبيّة كانت، ومن تطوريّة سبنسر، ومن حدسيّة برغسون، ومن براغماتيّة جيمس، ومن عقلائيّة راسل، ومن تشاؤميّة شبنجلر، ومن تفاؤليّة توينبي، ومن وجوديّة سارتر...

يأخذ من هؤلاء ومن غيرهم ما يلائمه، ويدع ما لا يلائمه، يُدخل هذا كلّهُ في مصفاة عنده للتنتقية والتمييز، فيأخذ ما صفا من كلّ شوب، ويدع الشوائب والرواسب والكدورات، فموقفه موقف المتخير المميّز بين ما يقبله ويعرفه منطق العقل، ومنطق الدين، ومنطق العلم، وما لا يقبله ولا يعرفه، فهو يرحّب بالمعروف، ويعرض عن المنكر.

إنّ رفضنا للنظريّة الكلّيّة لبعض هؤلاء، مثل دارون أو كونت أو ماركس أو فرويد أو دوركايم، لا يعني أن يكون كلّ ما قالوه باطلاً، فليس هذا من طبيعة الأشياء، ولا من سنن الله في البشر؛ ولهذا لا مانع أن يجد المسلم في هذه النظريّات بعض ما يفيدّه في تفسير بعض القضايا، أو حلّ بعض المشكلات النظرية أو العمليّة.

إنّ المسلم إذا بلغ درجة من النضج والرسوخ، لا يخشى عليه من أيّة مذاهب أو فلسفات يطلع عليها، كما لا يخشى على السباح الماهر، والغوّاص المتمرّس، من نزول البحر أو السباحة فيه. إنّما يخشى فقط على من لا يحسن السباحة، أو قليل الخبرة إذا خاض اللّجج وهو غير متهيّئ لملاقاتها.

كما أنّ السَّبَّاح البصير ينأى بنفسه عن مواقع الخطر، والدَّوامات البحريّة التي تبتلع من يقترب منها، مهما تكن مهارته، فهي كالوحش الفاغر فاه، أشبه بالحيتان الكبيرة وأسماك القرش ونحوها ممّا لا طاقة للإنسان به.

ومن هنا يستطيع المسلم المتمكّن والمؤمن القويّ أن يقرأ فلسفات الغرب، ويطلع على آراء فلاسفته، على رغم اختلاف مدارسهم، وتباين توجهاتهم، ويأخذ منها ويدع، وفقاً لمسلّماته الدينيّة والعقليّة، دون أن يحكم في ذلك هوى متّبعا، أو تقليداً سائداً، أو ظناً لا يقوم على يقين، ولا يغني من الحق شيئاً.

ليس من الحكمة ولا من الصواب إذن أن نرفض - باسم الإسلام وبمنطق شريعته - الحقيقة؛ لأنّها وجدت بين ثنايا الأباطيل، كالذي يرفض كلّ حكمة أو موعظة وجدت في كتب اليهود أو النصارى، أو وجدت في كتب الفلاسفة الماديّين المنكرين للألوهيّة أو للنبوّة أو للبعث، أو غيرهم من الفلاسفة والعلماء أصحاب النظريّات المختلفة في تفسير نشأة الكون، أو في تفسير السلوك، أو في تفسير التاريخ، أو غير ذلك ممّا يتنافى مع وجهة الدين وفلسفته، أو مع شريعته وأحكامه^(٨). انتهى كلامه رحمه الله.

ومن هنا تأتي أهميّة النقد عند المثقّفين والنخبة التي عليها المعوّل في نخل تراثنا، واستخراج كنوزه، ونقد وترك ما لا يناسبنا، وبالمقابل نخل منتج الآخرين، والاستفادة من الصالح النافع فيه، ورفض وهجر ما لا يناسبنا، هكذا تعمل الثقافات الحيّة، حيث تتفاعل مع غيرها فتُفيد وتُستفيد، تحت شعار: أصالة بلا انغلاق، وانفتاح بلا ذوبان.

(٨) من كتاب شيخنا القرضاويّ حفظه الله: (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) ص ٤٣، وقد تمّ نشره بصورة مقالة مستقلّة تحت عنوان: (المسلم كالنحلة)، وسيأتي مزيد تأكيد على هذه القاعدة عند الكلام عن قيود الاستقلاليّة وهو قيد (الانتهاج والتمذهب).

ومن مظاهر الانفتاح ما يلي:

أ- حبّ المعرفة والاحتفال بالجديد:

من الانفتاح حبّ المعرفة والاحتفاء بالجديد، وبداية ذلك بالقراءة والتأمل والتفكير، فهو يبتهج بقانون يكتشفه، أو ملاحظة ذكيّة يلتقطها، أو رؤية يبلورها، سأسميّه: (الظماً المعرفي).
والدهشة عندما يحصل على معرفة جديدة وأفكار مبدعة فهو يحتفي بالأفكار الجديدة ويفرح لدرجة الاندهاش.

ب- التسامح وسعة الصدر:

من الانفتاح التسامح وسعة الصدر، فالتسامح ضروريّ مع الرأي الجديد المخالف، فيصغي بإمعان للآراء الجديدة، فإذا اختلف عاقلان وجد كلّ منهما ما يتعلّمه من الآخر^(٩) والاستعداد للدوران مع الحقّ أينما لاح، والتخليّ عن الرأي السابق.
لذلك تجد المثقّفين ليس عندهم خضوع للعقل الجماعيّ، بل يتحرّرون من الثقافة الجمعيّة نتيجة الشكّ والبحث والاستماع للمخالف، وبناء الثقافة الخاصّة بهم.

بينما العامّة يميلون للخضوع للمعتقدات السائدة في مجتمعاتهم: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [المائدة: ١٠٤]

٩. ينظر: الدكتور توفيق الطويل في كتابه (أسس الفلسفة) نقلاً عن (باهم) في كتابه (عن الفلسفة) الذي نشره ١٩٥٣ م،

ص (١٤٨ - ١٥١).

ثانياً: العقلية النقدية والشك المنهجي:

أ-العقلية النقدية:

نحن في ثقافتنا عادةً ما نردّد عبارة (النقد البناء)، ولكن عملياً نخشى من النقد ونتوجّس منه، بل نكرهه! لكنّ النقد هامّ في التقويم والتصويب.

هبُ أنّك كنت تقود سيارة، ثمّ انحرفت بها الطريق قليلاً.. أليس من الجميل أن يبادر من هم حولك إلى تنبيهك؟

وعلى ذكّر السيارات.. أذكر مرّة أنّني كنتُ جالساً مع بعض الإخوة، وجاء ذكّر النقد وأهميته في التطوير، فاعترض أحدهم قائلاً: لماذا النقد؟! لا داعي للنقد! فقلتُ له: منذ قليل حدثتنا أنت مُعجّباً عن اليابانيين، وكيف اخترعوا إطار سيارة مطاطياً، وضعوا داخله طبقة من السيليكون المرن، لكي يلتئم عند دخول مسمار فيه وخروجه ولا يخرج الهواء منه!

ثم أردفت قائلاً: الإبداع يأتي بعد النقد، فقال: كيف ذلك؟ قلتُ: لم يفكّر المخترع بالسيليكون إلّا بعد أن انطلق من مشكلة انتقاب الإطارات بالمسامير، وتعطلّ السيارة عن المسير بسبب ذلك! فبداية الإبداع نقدٌ للإطارات السابقة، وتفكير بتطويرها وحلّ مشكلتها!

إذن فالتفكير الإبداعي يسبقه تفكير نقديّ، ثمّ إنّ الإصلاح والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ذلك كلّه يتضمّن نقداً لما يحتاج إصلاحاً ونصيحة، وأمرأ ونهياً..

ثم إنّ الناجحين دائماً يطلبون من يرشدهم إلى الخلل، وكذا الأمم المتطوّرة، تفرح بالكتابات الناقدة النوعية، حتّى إنّ الشركات الكبرى الذكية تموّل أبحاثاً في نقدها، وذلك لتطوير منتجاتها وخدماتها وأدائها.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عِيُوبِي».

وفي النهاية: المرآة الصقيلة المستوية هي المطلوبة، التي ترينا صورتنا على حقيقتها، لا المقعرة التي تضخّمنا ولا المحدّبة التي تصعّرنا.

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب النقديّ، إنّما نطمح من ورائه إلى النهوض بالنخبة الفاعلة في مجتمعاتنا، وكسر حال الجمود التي صرنا إليها نتيجة ركام قرون خلت!

ب- الشك المنهجي:

من العقلية النقدية أن يتّصف الإنسان بالشك المنهجيّ، حيث يتّصف المثقف المنشود بالقلق والحيرة المعرفية، فهو باحث عن الحقّ دائماً، لأنّه شكّ بالمعارف والنظريات السائدة كلّها^(١٠)، ولا يقبل الفكرة المجردة عن الحجج والأدلة، وبخاصة حين مقابلة مسألة أو مشكلة تحتاج تفسيراً، فهو محبّ للاطلاع، ممكن أن نصفه: (بالعقل الظامئ إلى المعرفة).

ومن الضروريّ امتلاك عقلية ناقدة، وتعليق مؤقّت للحكم فيما لم يستين، حتّى يصل لحكم يطمئنّ إليه، طالما أنّ هناك نقصاً بالأدلة (فطبيعة التفلسف والتفكير تنفر من الاعتقاد الجازم).

وهو ما يسمّى (بالشك المنهجي) الذي يشكّ بكلّ معرفة سائدة حتّى يحصل على برهانها ودليلها، فهو شكّ للوصول للمعرفة المبرهنة، حتّى تصبح كلّ أفكاره مفحوصة ومبرهنة. فالوثوقية العالية بالمعلومات تجعل صاحبها متصلّب العقل، متشبّثاً بأرائه، مرونته الذهنية متدنية، وليس مطلوباً منّا أن نعرف كلّ شيء بهذه الطريقة، فينبغي أن يرسخ في أذهاننا أنّ

(١٠) ولا نقصد أنّه تائه أو (لا أدري) فيما يخصّ العقائد الإيمانية، بل نقصد أنّه توصل إليها - وإلى غيرها من المعارف - عبر فكر وبحث، حتّى اطمأنّ لها، فعقله ينفر من التقليد والتسليم، دون أن يصل هو إلى قناعته الخاصة التي يرتاح إليها، وفي علم العقيدة اختلف علماءنا في صحّة إيمان المقلّد!

الحياة رحلة في طلب المعرفة، وأن أيّ عالم مهما علا كعبه في العلم فإنّه لا يحيط بكلّ شيء..
(تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [يوسف: ٧٦]

وأنّ الإنسان يموت، وفي نفسه شكّ من مسائل كثيرة لم يصل فيها إلى جواب، لذا ينبغي أن نميّز بين مراتب المعرفة، وأن نحصر على أن نعرض المعلومة، مع بيان مرتبة ونسبة علمنا بها، فمراتب الوثوق بالمعرفة على الإجمال خمسة:

١- اليقين ١٠٠٪ وهي المعلومة التي تمّ برهنتها حتّى وصل للقناعة التامة بها.

٢- غلبة الظنّ ٥١-٩٩٪ وهي درجات كما هو ظاهر، بعضها أقرب لليقين، وبعضها أقرب للشكّ، وأكثر معلوماتنا وعلومنا يقع ضمن هذه الفئة، أي (غلبة الظنّ).

٣- الشكّ ٥٠٪

٤- الوهم أقلّ من ٥٠٪

٥- الجهل (١١)

أما الإيـان فهي اعتقاد جازم، لكن لا يلزم أن يكون مبرهنًا عليه.

ثالثاً: الاستقلالية الفكرية:

وذلك بأن ينسج المثقف له بنية فكرية مكوّنة من مجموعة أفكار واعتقادات وقواعد ومنهجيات وتصورات تميّزه عن غيره، لأنّه انتقاها وشكّلها بنفسه عبر السنوات، ويحدّثها دائماً، فهو ليس نسخة مكرّرة عن غيره ممّن يقلّده.

وهذا يحتاج قدرة عالية على التجرّد عن التحيّزات والانتهايات والتعاطف أو الكره، وهو ما عبّر عنه عبّاس محمود العقّاد في وصفه للإمام الغزالي رحمه الله بالقدرة العالية على (التجرّد

(١١) ينظر للتوسّع عنوان: (العقلية الوثوقية ومراتب العلم) من كتاب: أخطاء في التفكير، د. حذيفة عكاش

والتجريد) والمقصود بالتجريد هو تجريد المعاني من عوالمها ولوازمها وقرائنها، التجرد لقبول الحق، وعدم التعصّب للانتهاآت، فهو يدور مع الحق أينما دار.

وهذا يعطينا أناساً عقلاء، أصحاب رأي وحجّة وإبداع، وهذا يغني مجتمعاتنا ومؤسّساتنا، صحيح أنّه يؤدّي للاختلاف الفكريّ بين المثقّفين والباحثين، لكن هذا هو المقصود، اختلافٌ تنوّع وغنى ووفرة، ومن نقاشهم وبيان وجهات نظرهم نصل لآراء ومواقف أكثر رشداً ممّا لو كنّا بين نسخ كربونية يقلّد بعضهم بعضاً، فمن سمات المجتمعات المتخلّفة أن يكونوا نسخاً عن بعضهم، يخافون التفرّد والتميّز والاختلاف!

ويمكن تقسيم أهمّ القيود التي تعيق الاستقلال إلى ثلاثة قيود:

أ- قيد المحيط:

في كلّ بيئة مفاهيم ومسلّمات وعادات ومعلومات يعتمد عليها أهل تلك المنطقة في حكمهم على الأشياء والأشخاص والمواقف (العقل الجمعيّ).. ومهما كانت هذه البيئة ناضجة فلا بدّ من قصور، وكلّما استطاع المثقّف التحرّر من قيودها والتفكير (خارج الصندوق) أي خارج المألوف، كلّما انتقل من المحليّة إلى العالميّة، ومن الذاتيّة إلى الموضوعيّة.

ب- قيد الانتهاآت والتمذهب:

الانتهاآت إلى قبيلة أو حزب أو جماعة أو جهة أو مؤسّسة أو طائفة أو مذهب، فمراعاة هذه الانتهاآت في البحث والتفكير غالباً يكون على حساب الموضوعيّة والحقيقة، وشواهد التعصّب للجماعات والمدارس الفكرية أكثر من أن تُحصى.

لذلك من أولى خطوات الموضوعية التحرر من التمدُّب^{١٢}، أو -على الأقل- التحرر من التعصّب المذهبي! لأنّها مثل الأيديولوجيا تضع معتنقها ضمن قفصها، وتضع على عينيه نظاراتها الملوّنة، فيرى من خلالها العالم بلون تلك النظارة! فينحاز لها دائماً، ولو خالفت الواقع الحقيقي!

فلا يوجد مذهب جمع الحقّ كلّهُ، ولا مذهب حوى الباطل كلّهُ، فلكلّ مذهب تألّقات فكريّة تشرق فيه نور الحقيقة، أو على الأقلّ نظر إلى الحقيقة من زاوية مختلفة.

يقول الدكتور "أحمد عزت راجح" رئيس قسم علم النفس في جامعة الإسكندرية، في مقدّمة كتابه: (أصول علم النفس) مبيّناً منهجه في التأليف:

"استعراض المبادئ والنتائج الأساسية التي أسفرت عنها بحوث المدارس السيكولوجية المعاصرة على اختلافها، وكذلك الجمع بين آراء هذه المدارس إزاء الموضوع الواحد، دون انحياز إلى إحداها،

فالأمور تزداد وضوحاً حين تُسلط عليها الأضواء من أكثر من جانب"^(١٣).

وسأنقل كلمة لباحث عربيّ في الفلسفة، تأكيداً على ما ذكرت، ولأبين أنّ آفة التعصّب غير محصورة بالكتابات الدينية.

يقول الدكتور "توفيق الطويل" في مقدّمة كتابه (أسس الفلسفة):

"عند عرض المذاهب ومناقشتها [علينا] أن نستبعد التحيز من حسابنا، فلا ننسى محاسن المذهب، ونحن في غمرة الكشف عن مأخذه، ولا نغفل عن وجوه التهافت فيه، ونحن

^{١٢} لا أقصد هنا التمدُّب الفقهي فقط، بل كل الانتباعات الضيقة، أما التمدُّب الفقهي الشرعي فالذي أعتقده أن التمدُّب وعدم التمدُّب كلاهما جائز بشرط عدم التعصّب! ينظر للتوسّع ما ذكرته عن (المذهبية) عند الحديث عن الفقه الإسلامي.

^{١٣}. ينظر: أصول علم النفس أحمد عزت راجح، (دار المعارف، ١٩٩٩م)، ص ٥

منصرفون إلى بيان محاسنه، فليس أَضَلَّ عندنا من رَفُضِ مذهب كامل، أو قبوله جملة وتفصيلاً، إذ بالغاً ما بلغ ضيق الباحث بمذهب ما - أو حتى بالأسس التي يقوم عليها مذهب ما - فإنه واجد في ثناياه بعض ما يروقه ويرضيه، ومثل هذا يُقال عن المذهب متى كان مثاراً لإعجاب الباحث المنصف، إنَّ مواضع الضَّعْف لا يتنافى وجودها مع مواطن الإعجاب، ومنهج البحث العلمي لا يحتمل التحيز، ولا يستقيم - مع التعصّب، ولا يضيق بالنزاع بين المذاهب وهي تنشُد الحقيقة في مظانّها.

ولكن من الفلاسفة المعاصرين من يضيق بأيّ نزاع يقوم بين الفلاسفة، لأنّه يشهد بأنّ الفلسفة لم تنجح في حلّ مشاكلها نجاح العلم الطبيعيّ الذي يستفتي التجربة ولا يُدعن لغير جوابها، فالأستاذ آير *A. J. Ayer* - أستاذ الفلسفة الحاليّ بجامعة لندن - يصرّح في كتاب من كتبه - يُعتبر اليوم على صغر حجمه إنجيل الدعوة إلى الوضعية المنطقية المعاصرة - بأنّ المذهب الذي يدين به سيتكفل لا محالة بالقضاء على مدارس الفلاسفة التي يقوم بينها - بصدد الحقّ - نزاع، لأنّ هذه المدارس قد أصبحت بعد قيام مذهبه تهذي ولا تقول إلّا لغواً!"^(١٤).

ألا يذكركم هذا الكاتب المتعصّب ببعض التيارات الدينية التي تكفّر وتضللّ سواها ممن ينتمون إلى دينها نفسه؟!

ج - قيد الذاكرة:

الذاكرة نعمة تراكم فيها الخبرات والمعرفة، لكن أصحاب الذاكرة الممتازة يحفظون الكثير، وينشغلون بالمحافظة عليه، لقيمته الكبيرة عندهم، والذاكرة تحاول المحافظة على ممتلكاتها، وتقاوم كلّ حذف أو غريلة أو نقد أو تعديل، وتصرف العقل عن الجديد إلى القديم

١٤. ينظر: أسس الفلسفة د. توفيق الطويل، ص ١١.

المحفوظ^(١٥)، لذلك غالب الحَفْظَة (من شديدي الحفظ) لا يبرعون بما يعتمد على مهارات التفكير العليا^(١٦)، فسبحان مقسّم الأرزاق!

د- قيد التطرف العاطفي:

العاطفة كثيراً ما تقود الفكر والسلوك أكثر من العقل، لذلك على المثقف الانتباه جيداً، ومحاولة التجرد من الهياج العاطفي، طبعاً الإنسان كائن عاطفي بطبعه، نقصد بالعاطفة هنا تلك التي تؤثر على الموضوعية والصدق والإنصاف، والحذر من الانفعال وتأثير الحب والكراهية، والتميز بالتفكير الهادئ المتزن، بعيداً عن التحيزات واتباع الهوى والشهوات^(١٧).

هـ- الانتماء الديني وعلاقة العلم بالدين:

الاستقلالية لا تعني ترك الانتماء للثوابت والكليات، فهذا الانتماء يوفر أرضاً صلبة، مرجعية تعصم من فقدان التوازن، وتصون من الضلال، وتوفر بوصلة للاتجاهات العامة التي تحكم رؤية المثقف.

وهنا عندنا موضوع شائك جداً وهو علاقة العلم بالدين وأيهما يُقدم؟

الشائع قولنا: (يستحيل أن يتعارض الدين الثابت، مع العلم الثابت، ويستحيل تعارض العقل الصريح مع الدين الصحيح)، فالدين من عند الخالق، والعلم هو العلم بالمخلوقات، ويستحيل تعارض العلم بمخلوقات الله مع دين الله، فكلاهما من عند الله تعالى، وهذا كلام صحيح لا شك، فنحن مؤمنون بالإسلام، وإيماننا يقتضي أن نعتقد الكلام السابق.

١٥. بكار، تكوين المفكر خطوات عملية، ص (٢٣).

١٦. يراجع عنوان: (هل يمكن تقوية التفكير؟) في كتاب أخطاء التفكير، د. حذيفة عكاش

١٧. ينظر عنوان: (التفكير الجاف والعاطفة) في كتاب أخطاء التفكير، د. حذيفة عكاش

لكن المشكلة وبيت القصيد وبيت القصيد تكمن فيما نظنه (ديناً صحيحاً، وعلماً صحيحاً) فكثيراً ما تكون الرواية أو الأثر أو القول الدينيّ ليس من الصحيح الثابت، لذلك ينبغي إلا نستعجل بردّ الدين، ولا بردّ العلم، بل نبحت بثبوت الفهم الدينيّ، فلعلّ فيه الخطأ وليس في الدين نفسه! حتّى لو ورد عن كبار العلماء والأئمّة والسلف الصالح، فأقوالهم ليست حجة على الدين، وربما كان الخطأ في النظرية العلميّة، فهي ليست مسلّمة في العلم^(١٨).

المبحث الثالث: كفيّة بناء العقليّة المنهجية:

يمكن اختصارها بوسيلتين: التفكير والقراءة المنهجية.

أولاً: التأمل والتفكير:

بداية التأمل والتفكير يكون بالقراءة، لكن لا يكفي قراءة السطور، بل لا بدّ من قراءة الكون المعمور، والتأمل في المقروء، والأحداث والواقع وصياغة منظومة فكريّة خاصّة، وآلية منهجية خاصّة بالمتقف^(١٩) فالقراءة والاطلاع على المعلومات بمثابة القضم، أمّا الهضم فيتمّ عبر التفكير والتأمل في الواقع وفي المعلومات، وفي المواءمة بينهما، أي بين الواقع والمعلومات. ولو أردنا حصر أهداف التفكير بنود رئيسة فيمكن اقتراح مجالين رئيسين:

(١٨) سأعود لهذا الموضوع عندما أتحدّث عن العلوم الإنسانيّة الإسلاميّة وعندما أتحدّث عن الإعجاز العلميّ، ومن الضروري الرجوع لمبحث (التفكير التقديسي) في كتاب (أخطاء التفكير) للمؤلف، ففيه فوائده من المفيد الوقوف عليها، إن شاء الله.

(١٩) بالرغم من أنّ العقل في ثقافتنا مشيطن، مع أنّنا بالعقل عرفنا الله تعالى وعرفنا صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعرفنا مصداقية كتاب الله، وفهمنا نصوص القرآن والسنة، وبه فهمنا الواقع ونزلنا تعاليم ديننا عليه، والعقل هو شرط التكليف أصلاً.

أ- اكتشاف السنن (القوانين) والعلاقات:

ينبغي على المثقف التفكير والبحث دائماً عن سبل الانطلاق من الجزئيات إلى الكليات، ومن التفاصيل إلى القواعد، ومن الأحداث إلى السنن، من ضيق النظرة إلى اتساع الرؤية. فالمطلوب هو المثابرة والتفكير في تفسير الأمور واكتشاف حقائق الواقع والسنن أي القوانين والقواعد التي تسير الحياة وفقها، واستنباط العلاقات والتأثيرات بين الظواهر، وتوليد الأفكار وبناء النظريات، والتنبؤ باستشراف المستقبل وعواقب الأمور، وكل ذلك يساعد على تشخيص المشكلات وكشف أسبابها ونتائجها، وإبداع الحلول لها.

ب- فهم التاريخ والواقع والمستقبل:

وذلك بأخذ العبرة من التاريخ وفهم الواقع واستشراف المستقبل، فمن مهام النخب المثقفة تكوين ملكة استشراف المستقبل، ولا نقصد هنا التخمين والظنون والرجم بالغيب، بل استشرافه عبر فهم السنن الكونية وربط المقدمات بالنتائج، والاسترشاد بعلم الاجتماع وعلم النفس وأخذ العبر والدروس من التاريخ، فالتاريخ يعيد نفسه، بمعنى تكرار السنن، فعندما تحصل مقدمات تؤدي إلى نتائج متوقعة.

فاستشراف المستقبل يتأتى من قراءة التاريخ واكتشاف السنن والقوانين التي حكمت التاريخ، مثل: كثرة الضغط تولد الانفجار / كثرة الفساد تنذر بانهيار الدول / عندما يرتفع الوعي لدى الأمم تبدأ بالرقى والنهوض.

فقراءة التاريخ وفهم الواقع تجعلنا نستشرف المستقبل، فلو تخيلنا الخطّ الزمني خطأً ممتداً، فعند فهم السنن التي حكمت الماضي، وكيف امتدت إلى الحاضر، نستطيع التنبؤ باتجاه ذلك الخطّ!

وهو غلبة ظنّ، وليس يقيناً، وهذا أهمّ فرق بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية، حيث تُبنى العلوم الإنسانية والتجريبية على غلبة الظنّ، إلا أنّ العلوم التجريبية أقرب لليقين،

فصلابة العلوم التجريبية أقوى من صلابة العلوم الإنسانية، من حيث الانضباط والاضطراب، لأن الإنسان ليس كالجملادات، أو بقية المخلوقات الحية، لأنه يتمتع بحرية الإرادة والاختيار. وهنا علينا الانتباه للتطورات في الواقع، فبعض العادات والصفات والآليات والوسائل القديمة، لم يعد لها نفس الوزن والقيمة في عصرنا، مثلاً شجاعة القائد، وقوة صبر الجنود، تراجعت قيمتها كثيراً في الحروب المعاصرة، لحساب قوة الآليات الحربية وذكاء الأسلحة الحديثة.. وسهولة اتخاذ قرارات الحرب قديماً، لم تعد بنفس سهولتها في عصرنا، لوجود منظمات دولية^{٢٠}، وعقوبات قاسية، قد تمتد سنوات وسنوات، وتقضي على مستقبل دولة جيلاً أو جيلين أو ثلاثة!

لذلك في التخطيط الاستراتيجي، هناك ما يسمى بالاحتمالات المستقبلية أو السيناريوهات، حيث تضع الدول المحترمة، والمؤسسات الكبرى العاقلة سيناريوهات متوقعة للمستقبل، وتضع لكل سيناريو خطة، ولا تنتظر حتى (يقع الفأس بالرأس) كما يقال! ولا تفكر بالحلول تحت ضغط الواقعة، بل تكون وضعت الخطط لكل توقع، وما عليها حين يقع الحدث فعلاً إلا أن توائم وتلائم بين خطة السيناريو المتوقع، وبين حقيقة ما وقع، وغالباً ما تكون الفروق طفيفة، وهذا ما يحتاج مواءمة، فحتى الخطط الاستراتيجية والتنفيذية في الأوضاع العادية، عند تحويلها إلى خطط تشغيلية يتم مواءمتها مع الواقع! إذن المطلوب من المثقف أن ينتمي إلى أمته، فيعيش همومها، ويتفكر في واقعها ومستقبلها، وسبل علاج الواقع وحل مشكلاته والنهوض به، لرسم مستقبل أفضل، فهذا هو نضال المثقف وإصلاحه، وذلك عبر التوعية والتعليم والتثقيف، وإطلاق المبادرات العملية، لتبليغ ما توصل له من آراء وأفكار إصلاحية للواقع والمستقبل.

٢٠- بغض النظر عن عدالتها وتحكم الدول القوية فيها.. فهذا أيضاً واقع يجب مراعاته، فيمكن الدول القوية معاقبة

أعدائها تحت غطاء القانون الدولي!

ثانياً: القراءة المنهجية:

لعل الكتابة أعظم اختراع بشريّ، فيها تمّ نقل خبراتهم وعلومهم وأخبارهم، وإليها تمت الإشارة بقوله تعالى: (الذي علّم بالقلم) فالمعلّم هو الله تعالى، والوسيلة هي الكتابة، فللقلم وَحْيُهُ وتوفيقُهُ وهدايتهُ، والاختراع الثاني أو الاكتشاف الثاني هو اكتشاف المناهج العلميّة التي ضبّطت المعارف والعلوم.

ولا تخفى أهميّة القراءة للاستفادة من أعظم اختراعين للبشريّة (الكتابة وضبط المناهج)، فما الفرق بين الأمي الذي لا يحسن القراءة، وبين المتعلّم الذي لا يقرأ؟! وكما نقول دائماً (نحن أمة اقرأ)، وأمة الإيمان بالخالق الكريم سبحانه وتعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (اقرأ وربك الأكرم).

ونقصد بالقراءة المنهجية القراءة التي يهدف صاحبها لبناء ملكة عقلية منهجية متعدّدة التخصصات، ليرى الواقع بأبعاده كلّها، وليس من زاوية ضيقة تخصّصية، يعالج من خلال هذه العقلية المعلومات وقيمتها، ويشخّص المشكلات، ويضع لها الحلول. إذن ليس المقصود بالقراءة تراكم المعلومات، بل اكتساب العقلية والمنهجية التفكيرية، يقول جون لوك:

"القراءة لا توفر للعقل إلا مواد المعرفة، لكن التفكير هو ما يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا".

فمجرد القراءة يراكم معلومات خاماً، غير معالجة، وغير متناسقة مع غيرها، ككومة أحجار، غير مرتّبة، وغير متجانسة، أمّا عندما يفكّر فيها القارئ، ويقارنها بمعلوماته وقواعده ومسلّماته، ويرجّح بين المتعارضات، فحينها تصبح ضمن منظومته الفكرية، وبالتالي تضحى ملكه.

ولكي نصل للملكة العقلية المنهجية لا بدّ من مراعاة عدّة ملاحظات تعين على ذلك وتؤدي إليه:

١- أفضل أنواع القراءة:

والقراءة أنواع، بحسب الكتاب والهدف من القراءة، ويمكن اختصارها بخمسة أنواع رئيسة ٢١:

أولها: القراءة الاستكشافية:

وهي تصفح كتاب ما لأخذ فكرة عن الكتاب وتقييمه وذلك بمعرفة أهم محتوياته وموضوعاته وأسلوبه وترتيبه وطريقته في الكتابة.

وذلك بقراءة معلومات الغلاف: وجهه وخلفيته، وقراءة المقدمة وتصفح الفهرس وقائمة المصادر والمراجع والملخص إن وُجد، وبعض الصفحات من داخل الكتاب في موضوع يهم القارئ، حتى يعرف أسلوب الكاتب، وهذا الاستكشاف يكون سريعاً يتراوح بين الدقائق إلى ربع الساعة، وقد يصل إلى نصف ساعة أو أكثر، بحسب الوقت المتاح، وأهمية الكتاب.

ثانيها: الانتقائية:

لمراجعة معلومة أو مراجعة مسألة، أو الاطلاع على موضوع ما، كمراجعة معنى كلمة، أو تخريج حديث، أو معنى آية في تفسير ما، أو قراءة موضوع في كتاب ما..

ثالثها: السريعة:

بقصد التسلية، أو الاطلاع السريع على معلومات الكتاب، أو مراجعة سريعة لكتاب تمت قراءته سابقاً، لاستذكار معلوماته، وهنا أنصح بفهرسة خلاصات أهم العبارات والأفكار في الورق الأبيض المتاح في أول الكتاب أو آخره، مع وضع رقم الصفحة بجانبها، كي تعود لها وتتوسع فيها عند الرغبة..

٢١ لأستاذنا الدكتور عبد الكريم بكار كتيّب ممتاز في هذا الخصوص عنوانه: (القراءة المثمرة) ننصح بقراءته، وللمؤلف سلسلة بعنوان: (القراءة الفعّالة) متوفرة على موقع: أكاديمية رؤية للفكر، استفدت فيها من كتاب الدكتور بكار وغيره من الكتب ومن التجربة الشخصية.

رابعها: القراءة التحليلية:

هذا للكتاب الذي تتم دراسته بقصد تقديم امتحان فيه أو لأهميته عند القارئ، فهي قراءة دراسة وتحليل وتمحيص وكثيراً ما تكون مدارس أو تدريساً للكتاب.

خامسها: القراءة البحثية:

وهي القراءة التي تتمحور حول بحث أو موضوع ما، بقصد الكتابة فيه، فهو حفر وتتبع معرفي حول موضوع ما.

أي هذه الأنواع أفضل؟

أنواع القراءة هذه لا يوجد فيها أفضل، بل كل طريقة هي الأفضل، بحسب الكتاب والهدف من قراءته! فبعض الكتب -مثلاً- صعبةٌ تحتاج تأنياً وتحليلاً، ولا تفهم شيئاً لو قرأتها بسرعة، كما أن أغلب الروايات والقصص والجرائد والمجلات والكتب الخفيفة من العبث التطويل فيها..

وبعض الكتب لا تساوي ثمن الخبز والورق الذي طبعت به، وبعض الكتب الجيدة تكتب لها ملخصات، تُثبت فيها أهم الاقتباسات والأفكار، تشعر بأهميتها البالغة، لكنك لو عدت إليها لاحقاً ستكتشف أنك تجاوزتها، فلم يعد لها تلك الأهمية بالنسبة إليك.

وبعض الكتب المنهجية كالنوع الثر، كلما قرأت فيها أعطتك.. وبخاصة الكتب المحورية في تخصصك.. والتي كانت علامة فارقة في تاريخ ذلك العلم، مثل كتاب الموافقات للشاطبي، فقد روى لنا أستاذنا الدكتور "سيف عبد الفتاح" أنه قرأ موافقات الشاطبي أكثر من عشر مرات!

ومن الضروري إلا يكون القارئ متلقياً سلبياً، (مستسلماً) لأفكار الكاتب، وعلى النقيض من ذلك، فيفوت القارئ (المشاكس) الكثير من الخير لو كان همّه الأكبر النقد، وردّ الأقوال وعدم قبولها، والمطلوب القارئ النابه (المنصف) الذي يحاور الكاتب، ويشاركه في معالجة

الموضوعات، فيتفق مع الكاتب ويضيف عليه حيناً، ويعدّل عليه أحياناً، ويخالفه ويردّ عليه في أحيان أخرى، وبذلك يكسب ملكة ذلك العلم.

وكم هي جميلة هذه العبارة المنسوبة لفرانسيس بيكون:

" بعض الكتب ينبغي أن يُذاق، وبعضها يجب أن يُزدرى، وبعضها القليل خليق أن يُمضغ ويُضم.. ذلك أنّ بعض الكتب ينبغي أن يُقرأ منها شيء، وبعضها ينبغي أن تُقرأ، ولكن ليس بالحرص التام، وقليلة هي تلك الكتب التي يجب أن تُقرأ كاملة، وبكامل الاجتهاد والانتباه "

٢- تحصيل الملكة:

لا يُكتفى بتكديس المعلومات، بل باكتساب ملكة ذلك العلم، فأسمى ما ينبغي أن يطمح إليه طالب العلم هو تحصيل الملكة في التخصص العلمي الذي يدرسه، والمقصود بـ (الملكة): عقلية ذلك العلم وصنعتة وحرفته وإتقانه، وعدم الاكتفاء بحفظ قواعده، وفهم مسائله، وإن كان لا بدّ من ذلك، لكن الهدف والمقصود هو تحصيل ملكة العلم وهي القدرة على تطبيق قواعده والنقد والترجيح والإبداع في ذلك العلم.

فالملكة هي تحصيل المهارة والتذوق، وامتلاك عقلية ناقدة مبدعة في ذلك العلم، بحيث يستطيع العالم من خلال تلك الملكة حفظ المسائل بسرعة وفهمها وتقويمها وإلحاقها بنظائرها، وإدراجها تحت قواعدها، وتقويم الأقوال في المسألة أو القضية التي يدرسها والترجيح بين وجهات النظر، بل اشتقاق واجترار وإبداع أقوال جديدة (إن أمكن).

والسؤال الآن: هل هذا الهدف في قائمة الأولويات لدى مؤسساتنا التعليمية عموماً والشرعية خصوصاً؟

الواقع يظهر أنّ أهمّ الأوّل هو تحفيظ مسائل تلك العلوم، والمحفوظات -بطبيعة الحال- لا آخر لها، لكثرة المصنّفات! كما مرّ معنا تنبيه العبقريّ ابن خلدون رحمه الله بقوله: إنّ (كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل).

فالواقع فعلياً في بيئاتنا أنّ المعلّم في كثير من الأحيان غافل عن هدف العلم الذي تخصّص فيه، ومنشغل بجمع المعلومات وحفظها، ويشغل طلابه بها، وهو لا يفعل ذلك بسوء نيّة، بل نيّته طيّبة، ويظنّ أنّه بذلك إنّما يزيد من علم تلاميذه.

فليس هدف العلوم حفظ الأقوال والحجج، بل تحصيل (العقليّة والملّكة) في ذلك العلم، حتّى يصبح مؤهّلاً للمجيء بأقوال جديدة أو موافقةً للأقوال السابقة، لكن (باجتهاد) وافق اجتهاداً سابقاً، وليس نقلاً وتقليداً، وهذا هو الفرق بين الذي يحفظ، وبين من يصبح صاحب ملكة!

وهذا لا يلغي أهميّة حفظ العلوم، فحفظ المعلومات شيء لا بدّ منه، وهو أساس كلّ علم، فكيف سيمتلك العلم ويصبح ذا ملكة فيه، وهو لا يحفظ مسأله؟!!

لكن ما نريد تأكيده هو عدم الاقتصار على حفظ المسائل والتعدادات والتفريعات، بل الانتقال من الحفظ المحض إلى بقيّة مستويات التفكير التي ذكرها (بلوم) في سلّمه الشهير، وهي (الحفظ، ثمّ الفهم، ثمّ التطبيق، ثمّ التحليل، ثمّ التركيب، ثمّ التقويم، ثمّ الابتكار) وهنا ننبّه إلى أنّ أدنى مهارات التفكير: الحفظ والتذكّر، ثمّ تصعد إلى أعلاها وهو الابتكار.

فرق كبير بين من يحفظ ويفهم ويطبّق ويحلّل ويقوم ويبدع، ويجوز الملكة والمنهج وطريقة التفكير، حتّى ينقلب إلى منتج للمعلومات في ذلك العلم، وبين من يكتفي بالحفظ فقط! فتجد الكثير من (حفظّة العلوم) يعيد لك المفردات والمصطلحات نفسها، بل حتّى الكلمات التي حفظها، ولا يقوى على استبدالها بألفاظ أخرى، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عدم تمكّن المعاني والفهم العميق للفكرة، فيبقى الحافظ أسيراً للألفاظ، مخافة تغيير المعاني التي لم يهضمها!

بينما تجد صاحب الملكة قد تغيب عنه بعض المعلومات في ذلك التخصص، لكنّه قادر بعقليّته أن يستدرّكها باجتهاده ورأيه، فعقله - بما ملكه من قواعد ومنطق تفكير - كأنّه أصبح

مولدًا لفروع هذا العلم، وأضحى منظرًا فيه، وهذا ليس مستحيلًا، بل ممكنٌ يمكن الوصول إليه بالتدريب والممارسة.

قد يقال: إنَّ مستوى تلامذتنا ضعيف، فلا تكلف التلاميذ فوق طاقتهم، فكثير من أساتذتهم لا يستطيعون ذلك!

إخواني! الحل يكمن في إصلاح المناهج، بجعلها تراعي (بناء الملكة) وتعتمد جوانب التطبيقات والتدريبات العملية من المراحل الأولى، وتدريب المدرّسين عليها، عندها سيدهشنا الأساتذة مع تلامذتهم بقدراتهم ومهاراتهم.

ولو ربّيناهم على تحصيل الملكة، سيقدرّون احترامهم للعلماء الراسخين ممّن حصّلوا تلك الملكة، ويزيد أكثر بكثير، ممّا لو اقتصرنا على تحفيظهم أقوالهم فقط، لأنّهم بالسعي إلى تحصيل الملكة سيعرفون قدرَ كبار العلماء ومكانتهم وجهودهم، وسيدركون أيّ منزلة بلغ أولئك العلماء حتّى أتوا بهذه العلوم الراسخة.

لذلك علينا أن نوجّه تلاميذنا الناهيين لهذا الهدف الأسمى (بناء الملكة)، ومن قصّرت همّته واستعداداته عن بلوغ تلك المرتبة - بعد السعي والمحاولة - فليكتفِ بما وصل إليه بحسب جدّه واجتهاده، فهو أفضل ألف مرّة من حبس التلاميذ بسجن الحفظ فقط!

وهنا لا نشترط في التدريبات وحلّ المسائل صوابَ أجوبة التلاميذ كلّها، ففي مادة الرياضيات - مثلاً - يُعطون الدرجات للتلميذ على خطوات الحلّ السليم، حتّى لو أخطأ في النتيجة النهائية، لأنّهم يعتمدون على بناء المهارة في استخراج المعلومة، لا على حفظ المعلومة الجاهزة.

فلماذا نكتفي في علومنا الشرعية بتلقين التلاميذ المعلومات دون أن ننمّي فيهم (ملكة التطبيق) في تلك العلوم.

وحتى لا يبقى الكلام نظرياً، سأذكر الهدف الذي ينبغي التركيز عليه عند دراسة بعض العلوم الشرعيّة:

فعلم العقيدة: هدفه بناء القدرة على الحجج، والبرهنة على صحّة العقائد والدفاع عنها، وفق ثقافة عصرنا.

وعلم التفسير: هدفه بناء القدرة على التدبّر والترجيح بين الأقوال والمعاني والروايات التفسيرية، حتى يصبح التلميذ قادراً على تفسير القرآن الكريم وفق ثقافة عصرنا، لا ناقلاً لتفسيرات غيره فقط.

وعلم مصطلح الحديث: غايته إكساب التلميذ المختصّ بالحديث الشريف القدرة على الحكم على الحديث قبولاً أو ردّاً، أي تصحيحاً أو تحسيناً أو تضعيفاً.

وعلم الفقه وأصوله: لكي يمتلك التلميذ مهارة الاجتهاد وملكته بدرجاته المعروفة (المطلق والمقيّد ومجتهد الباب والمسألة والاجتهاد الانتقائي والترجيحي) وذلك بحسب همّة التلميذ ومؤهلاته وقدراته.

وعلوم العربية: لإكساب التلميذ تذوق اللغة العربيّة وفهمها، واستخدام أفضل أسلوب عربيّ للكلام والقراءة والكتابة!

فلماذا في تعليمنا الشرعيّ نخرّج تلميذاً لا يجرؤ على استخدام عقله في الحكم على مسألة حادثة، دون الحصول على الحلّ منصوصاً عليه في كتاب قديم!

طبعاً عندما يتّضح الهدف، يسهل إيجاد الوسائل لتحقيقه، وهذا ليس عسيراً، فالتعليم الحديث ينمّي في التلاميذ مهارة شرح الشعر وتحليله، كما أنّه يعلمهم مهارة كتابة موضوعات الإنشاء والإبداع فيها، وحلّ المسائل العويصة ممّا لم يمرّ بهم في الكيمياء والفيزياء والرياضيات

والجبر والهندسة في أثناء الدراسة.. فالمسائل التي يحلونها في الامتحانات لم يحلوها خلال العام، بل تَمَرَّسوا على القواعد وحل أمثالها من المسائل (٢٢).

فلماذا لا تكون امتحاناتنا في المواد الشرعية مثلها، تعتمد اختبار تمكّن الطالب من ملكة العلم، لا اختبار ذاكرة الطالب في حفظ المعلومات فقط؟!

وبخاصة أنّ عصرنا فيه من المستجدّات والنوازل ما يتطلّب نظراً جديداً، وهذا يتطلّب امتلاك علمائنا ملكة وقدرة على تطبيق قواعد العلوم على المستجدّات، كما أنّ عصرنا توفّرت فيه المعلومات كثيراً وبشكل يحير المطلّع على المعلومات المتضاربة في كثير من الأحيان، وهذا يتطلّب الترجيح بين هذه المعلومات، والترجيح يشترط أن يمتلك المرّجح ملكة وقدرة على الترجيح بين المعلومات المختلفة والمتضاربة!

٣- الثقافة التمازجية:

يلزم المثقّف أن يتملّك رؤية واضحة للواقع واستشراف المستقبل وتشخيص مواطن الخلل واقتراح كيميّة العلاج، كسياسات وآليات وخطوات عمليّة واضحة، فلا يكفي الشعارات العامّة والكلمات الحماسيّة.

وحتىّ يحقّق ذلك لا بدّ أن يمتلك المثقّف ثقافة (تمازجية تكاملية) هدفها تكوين رؤية (بانورامية) حول القضية الواحدة التي ينظر إليها، ويتمكّن من استخراج المؤثّرات في هذه القضية، واقتراح الحلول المؤثّرة فيها، فكّل علم له زاوية ينظر من خلالها للقضية المراد دراستها، وتتعدّد العلوم تتعدّد زوايا النظر، حتىّ تصبح رؤية (بانورامية) من كلّ الجهات، ولا ينحصر الباحث بزواوية تخصّصه الضيقة.

يقول الدكتور عبد الكريم بكار:

(٢٢) ينظر حلقة: (العلوم الشرعية بين الحفظ وتكوين الملكة) من برنامج (بصراحة) على اليوتيوب للمؤلف، وهي متوفّرة كنص في كتابه بصراحة.

المجتمعات حين تنهض، لا تنهض بفضيلة أو فضيلتين، وحين تنحط لا تنحط كذلك بعدد قليل من الرذائل، إن النهوض يرتبط بنسيج من الفضائل والعوامل الإيجابية، كما أن الانهيار يرتبط كذلك بمجموعة من الرذائل والأمراض الاجتماعية؛ ولهذا فإن على المتحدث أن يتجنب تضخيم العلة التي استند إليها في إقناع جمهوره، وأن يتجنب كذلك النمط اللغوي الذي يؤكد على السبب الوحيد، والعامل الوحيد، والمكسب الوحيد..

نحن لا نشك في أن الظواهر الكبرى تستند في ظهورها إلى عدد من الأسباب، ولا نشك بأن لكل سبب وزنه الخاص، وتأثيره الخاص في حصول تلك الظاهرة، وهو الذي يسوغ التركيز على بعض الأسباب وإبرازها، ولكن مع كل ذلك فلا بد من الحذر^(٢٣).

بداية لنصطلح على التخصص العلمي (بالعلم العمودي) وعلى الثقافة العامة (بالثقافة الأفقية).

فالتخصص مطلوب، والتركيز على (العلم العمودي) لا بد منه، لكن المثقف لا يجوز إلا يمتلك ثقافة أفقية ممتازة، فليحذر من يريد تكوين معرفة ممتازة من أمرين اثنين:

أولاً: أن يتكلس الباحث ضمن مسائل تخصصه الجزئية: لأن رؤيته للعالم والواقع ستكون قاصرة، وسيصاب (بالاختناق المعرفي)، كالذي ينظر إلى غابة كبيرة من (أنبوب ضيق) ويريد وصفها من خلال رؤيته القاصرة تلك!

ثانياً: أن يحذر من التشتت في عالم المعرفة الواسع: فالعلوم لها جاذبية وإن لم ينتبه المرء لنفسه سيتوه كل فترة في بحر من بحور المعرفة، فلا بد من خطة محكمة يلتزم بها المثقف، حتى تتكامل معلوماته ولا يكون متشتتاً بين العلوم والثقافات.

فالمختص الذي لا يملك سوى معرفة بالعلوم الشرعية سيكون خطابه (أحادي البعد)، بينما لو دعم العلوم الشرعية بالثقافة العامة من بقية العلوم وبخاصة فيما يتناوله من مسائل،

٢٣. المتحدث الجيد مفاهيم وآليات، د. عبد الكريم بكار، ص (١٠٩).

سيفهم الواقع الذي يعالجه ويعرفه معرفة علمية، وبالتالي ستجد خطابه أقرب إلى عقول الناس ونفوسهم وقلوبهم.

لأنّ التقسيم الأكاديمي للعلوم خياليّ وليس حقيقياً في الواقع، فالواقع متداخل بين الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة والفيزياء والكيمياء.. فعندما ننظر في الواقع لن نجد ظاهرة كيميائية بحتة، وأخرى إلى جوارها فيزيائية، وبعدها ظاهرة سياسية، فالواقع تتداخل فيه القضايا ويمكن الحديث عن تخصص ما بحسب الزاوية التي تتناول فيها الواقع..

إذن الثقافة الأفقية ضرورية لما ذكرنا، ولأنّ مشكلات الواقع أسبابها متعددة وليس سبباً واحداً، وبدون الثقافة الأفقية لن تعرف الأسباب المتعددة.

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله:

"ولا شك أنّ كلّ صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثرٌ يسببها عقلاً جديداً، تستعدّ به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف" (٢٤).

ويقول الإمام ابن حزم رحمه الله:

"من اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره؛ أوشك أن يكون ضحكة، وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه، أكثر مما أدرك منه، لتعلّق العلوم بعضها ببعض، كما ذكرنا، وأنها درج بعضها إلى بعض، كما وصفنا، ومن طلب الاحتواء على كلّ علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء" (٢٥).

لذا نحتاج ثقافة تمازجية، تمزج بين العلوم وتكتشف الترابط بين العلوم تأثيراً وتأثيراً، وبين المعلومات الجزئية تأثيراً وتأثيراً، هكذا تتكامل العلوم وتبني وحدة فكرية لا ينقض بعضها

٢٤. مقدّمة ابن خلدون، ص (٥٤٧).

٢٥. رسائل ابن حزم (٧٧ / ٤)

بعضاً، وهذا لا يتحقق إلا بالتفكير بكل معلومة، وإدخالها في مكانها في النسق المعرفي الشخصي، وإلا بقيت المعلومات مفككة ككومة من الخردة!

كما أنّ المعلومات تتضارب أحياناً فلا بدّ من حلّ ذلك التعارض، وهذا يتطلب صبراً في القراءة، وتفكيراً في المقروء، فليس المطلوب كثرة القراءة فقط، بل كثرة التفكير بالمقروء، فالقراءة قضم والتفكير هضم، فلو لم تُعط الهضم وقتاً وطاقةً ستصاب بعسر الهضم، وتصبح ممن يُقال فيهم يحفظون ولا يفهمون!

وهذا مشاهد عند كثير من المثقفين وبخاصّة من أصحاب الذاكرات القويّة، فتجدهم يناقضون أنفسهم، لأنّ معلوماتهم ليست مرتّبة، وليست مُعالَجة، لأنّه قد تمّ تكديسها دون معالجة بالتفكير والتأمّل.

فلا يمتلكون منهجيّة بالتفكير، يحفظون المتناقضات وهم لا يشعرون، لعدم إتيان أنفسهم ببناء منهجيّة في تفكيرهم، فيحرمون من إعمال هذه المنهجية في محاكمة معلوماتهم. فالعقل يمكن أن نشبهه (بجهاز الحاسوب) والمنهجية في التفكير (بنظام التشغيل)، والمعلومات (بالبينات والمعلومات).

كما أنّنا نحذّر من الثقافة التكدسية، فالمطلوب التمازج واستخراج العلاقات بين العلوم وبناء بنية فكرية متماسكة، كالنحلة التي تزور الحقول والزهور، ثمّ تعالج المحصول، فتخرج عسلاً شفاءً للشاربين.

كما أنّ من مهمات النخبة إجراء تمازج بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأجنبية المفيدة، بما يتحمّله مجتمعنا، فهضم واستيعاب الثقافات الأخرى يحتاج طاقة عالية، لاقتباس النافع وإهمال الضار أو التحذير منه لو شاع بيننا.

وفي موضوع القراءة التمازجية ست ملاحظات وتنبهات هامة أسوقها في النقاط التالية:

أ-كلّ علم هو الأفضل عند أهله:

تكلم الباحث ضمن مسائل اختصاصه الجزئية مرفوض، وكذلك يُرفض ضياعه في عوالم المعارف الواسع، لذلك سأخصّص الكلام عن كلّ علم بعنوان مستقلّ، لعله -بفضل الله وكرمه- يكون هادياً ومعيناً لمن يرغب بتكوين ثقافة فاعلة.

فهناك مشكلة علمية عند الحديث عن فضائل العلوم، حيث يتمّ المبالغة في مكانة العلم والتساهل في الروايات كما يتساهلون بوجه الاستدلال، التي تدلّ على فضيلته وأهميته، - وهذه الظاهرة موجودة في كلّ مباحث الفضائل والمناقب سواء للأشخاص أو الأماكن (٢٦) أو الأوقات أو الأعمال- مما يورث ارتباكاً علمياً في تصوّر خارطة العلوم وألويتها وأهميتها، وأحياناً مكانتها الحقيقية في خارطة المعارف.

فكلّما فتحت كتاباً أو استمعت لمقدمة دروس، أو محاضرات في علم ما، تجد في مقدماته كلاماً كثيراً ما يكون مبالغاً فيه عن مكانة ذلك العلم، حتى إنك تقرأ العبارة المكرّرة في كلّ علم بأنّ "هذا العلم أشرف العلوم

وإن احتاط المؤلف وكان أكثر دقة فإنّه يقول: (من أشرف العلوم) لتعلّق هذا العلم بكذا وكذا.. وهذا الأمر مهمّ جداً، فالعلم المتعلّق به مهمّ كذلك! ثمّ يسوقون الروايات والاستدلالات (الصحيحة والضعيفة) لبيان أهمية هذا العلم!

(٢٦) يقول الدكتور خالد الحايك (المختص في الحديث النبوي الشريف):

"قد بينت -بفضل الله- في كثير من بحوثي ودراساتي أنّه لا يصحّ حديث في فضل أي بلد إلا مكة والمدينة، لما يتعلّق بهما من أحكام شرعية، مع قدسية هذين المكانين، وكذلك قدسية المسجد الأقصى ومباركة الله سبحانه وتعالى لذلك المكان وما حوله"

من بحثه: [السيوف الباترة في ردّ عادية «الأربعون المتواترة في فضائل اسطنبول الفاخرة» وجنابتها على السنّة الطاهرة، ردّاً على حاكم بن عيسى المطيري في تصنيفه كتاباً في فضائل إسطنبول!]

ومن أسباب المبالغة:

- أن المختصّ - غالباً - ليس عنده إحاطة ببقية العلوم، فهو يقرأ عن فضائل هذا العلم، ويشغل به ويدرك أهميته، مما يورثه استخفافاً - لا شعورياً - بأهمية بقية العلوم.

- ومن أسباب المبالغة منهجية التسهيل في رواية الأحاديث النبوية في الفضائل والترغيب، فيتساهلون في الفضائل ما دام قصدهم شريفاً، وهو الترغيب بذلك العلم.

- ومن أسباب ذلك ضعف اهتمامنا بتاريخ العلوم وفلسفتها، فنشغل باختصاصنا، ونغفل عن غيره من الاختصاصات، فيكون تصوّرنا للخارطة المعرفية مشوّهاً.

وللأمانة فإنّ هذه الآفة موجودة عند كلّ التخصصات في العلوم والمهن والأعمال، فذلك يُقنع كلّ إنسان بما أقامه الله عليه من مهنة عمليّة أو تخصص علمي، فهو يرى أهميّة عمله وضرورته، حتّى يُعمر الكون وتُسدّ الثغرات، وتُلبي الاحتياجات: {نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرًا مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: ٣٢]

لذلك سنحاول ضبط مكانة كلّ علم، ووضع في مكانه المناسب ضمن خارطة بقية العلوم.

ب- الاختصاص الثنائي:

المتصدّون لبيان أحكام الإسلام وهداياته وتعاليمه كثر - ولله الحمد - ولكن أطروحات كثير منهم ينقصها العمق والنضج فيما يتعلّق في الاختصاص الذي يتحدثون فيه، فالعلوم أصبحت متشعبة جداً، فكلّ جزئية علمية أصبح فيها مختصون عميقون، وشمول الإسلام وشمول تعاليمه لكلّ مرافق الحياة، لا يعني شمولية الناطقين باسمه؟! فمن العبث أن يتصدّى كلّ طالب علم أو عالم شرعي للكلام والتصريح والتقييم لكلّ ما يدور في المجتمع من قضايا بكافة المجالات والاختصاصات.

فالثقافة الأفقيّة لا تؤهّل صاحبها للإدلاء بتصريحٍ وحُكمٍ لكلّ قضية، وإلا سيكون كلامهم سطحياً، ومثاراً للنقد والأخذ والردّ والفتنة، وكثيراً ما يُوقع الناس بسوء الظنّ بالإسلام وعلمائه، والسبب اقتحام الناطقين باسم الإسلام لكل مجال دون مراعاة للتخصص.

وقد اقترح الدكتور نواف التكروري - حفظه الله - اقتراحاً جميلاً يعالج هذه المشكلة، وهي تقسيم اختصاصات الشريعة لعشرين، أو ثلاثين أو أربعين اختصاصاً، أو أقل، أو أكثر، بحيث يدرس الطالب الشقّ الشرعيّ والشقّ العلميّ المتعلّق بهذا الاختصاص، وبذلك يكون عميقاً بهذا الاختصاص.

وأذكر أنّ هذا الأمر كان هدفاً لـ (الجامعة الإسلاميّة العالميّة في ماليزيا) حيث يدرس الطالب اختصاصين، الأوّل اختصاص شرعيّ والثاني اختصاص علميّ.

ولا شكّ أنّ ذلك مفيد حيث ينضج في ذهن الطالب العلمان، ويحلّ الإشكالات بين العلمين خلال المرحلة الجامعيّة، فيخرج منه بعد خلط هذا الطلع من الزهور المختلفة عسلاً صافياً سائغاً للشاربين - إن شاء الله - وبخاصة لو حصل بين الكليّات الشرعيّة والعلميّة تكاملٌ وتنسيقٌ ومراعاة، فتكون المناهج تراعي هذا التكوين عند الدارس.

ويكون - بعد فترة - الأساتذة خريجين في هذه المناهج، فيتّم التعديل والتطوير المستمرّ للمناهج الدراسة فيتخرّج علماء جمعوا بين العلم الشرعيّ وما يقابله من العلوم الدنيويّة، فتتخلّص من هذا الفصام النكد بين العلوم الشرعيّة والدنيويّة!

قد يُقال: (هذا يحصل في مرحلة الدراسات العليا عند كثير من الدراسين) ونقول: هذا لا يكفي، لأنّه يجري اتفاقاً من دون تخطيط، بل كثيرون يدرسون اختصاصاً في الماجستير، ويتقلّون لآخر في الدكتوراه! والمطلوب هو الاختصاص في مرحلة البكالوريوس، وتعميق

ذلك في مرحلة الدراسات العليا، لنتج باحثين عميقين مختصين يكونون حُجّة وأعلاماً في هذه الاختصاصات!

ولنضرب لهذه الاختصاصات أمثلة:

الفلسفة والعقيدة

الإيمان والإلحاد والأسئلة الوجودية

فلسفة الدين

تفسير القرآن الكريم

الحديث الشريف

العبادات والتربية الروحية

الأسرة والعلاقات الزوجية

المعاملات المالية والتجارية

البنوك والمعاملات المصرفية

السياسة الشرعية وأنظمة الحكم

العلاقات الدولية

التربية والتزكية

الحضارة والنهوض

التاريخ الإسلامي

أصول الفقه والمقاصد

القضاء والمحاكم والقوانين

القوانين والأنظمة

القيم والأخلاق

مقارنة الأديان

الفرق والمذاهب الإسلامية

التيارات الفكرية المعاصرة

الأدب الإسلامي

الشؤون الطبية

علم اجتماع المجتمعات الإسلامية

علم نفس المجتمعات الإسلامية

ويمكن اقتراح اختصاصات أخرى..

ج-مطالب كثيرة تقتضي التخفيف:

تقول القاعدة الشرعية؛ وهي قاعدة عقلية حكيمة: (إذا ضاق الأمر اتسع) والقاعدة

القرآنية تقول: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

بما أن تكوين ثقافة عامة تتطلب من المثقف الاطلاع على علوم كثيرة، ففي المقابل سنخفف

من الكميات المطلوبة في كل علم (التكديس) لنحصل على الكيفيات والفائدة المرجوة

(الفاعلية).

وهنا أحب الاستشهاد بقول الإمام "الغزالي" رحمه الله الذي خفف شروط المجتهد

المعهودة؛ يقول الإمام "الغزالي" في شروط المجتهد في الشريعة الإسلامية:

"أَمَّا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الْأَصْلُ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَلِنُخْفَفَ عَنْهُ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ مَعْرِفَةُ جَمِيعِ الْكِتَابِ، بَلْ مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْأَحْكَامُ مِنْهُ، وَهُوَ مِقْدَارُ

خُمْسِ آيَةِ.

الثَّانِي: لَا يُشْتَرَطُ حِفْظُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، بَلْ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَوَاضِعِهَا بِحَيْثُ يَطْلُبُ فِيهَا

الآيَةِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ.

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ، وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى
الْوَفِّ، فَهِيَ مَحْضُورَةٌ وَفِيهَا التَّخْفِيفَانِ الْمَذْكُورَانِ" (٢٧).

ونحن نريد مثقفاً له رأي في الواقع، واجتهاد في تشخيص علله وأدويته، ولتكوين ثقافته
شروط كثيرة، لذلك سنخفف في الكمية بالتركيز على النوعية.

فكثير من المدرسين يحبون تدريس ما يؤلفون، قديماً (أصحاب المتون) وحديثاً (دكاترة
الجامعة) للمكانة العلمية التي تعطيها المؤلفات للمدرسين، وفي كثير من الأحيان للكسب
المالي من بيع الكتب.

لكن المشكلة أن أغلب هذه المؤلفات تكرر ما سبقها، دون إضافة علمية تُذكر، لذلك
فالحرص على جمع المؤلفات في كل علم، والحرص على قراءتها كلها لا فائدة كبيرة منه، فكثيراً
ما يكون بعض المؤلفين غير متمكنين من العلم، فيشوّهون بعض المعلومات، فتلتبس الفروق
بين المؤلفات في ذهن القارئ، وتختلف أساليبهم في التصنيف والتقييم والاصطلاح، فيظنّ
القارئ أن المشكلة في استيعابه وفهمه، ولكن الحقيقة أن بعض المؤلفين غير محققين في العلم
الذي يؤلفون فيه!

فينبغي الحرص على اقتناء الكتب النوعية في كل علم، تلك الكتب التي نقلت ذلك العلم
نقلات نوعية في العلم المراد دراسته، والاختصاص فيه.

ولهذا ننصح بالقراءة للنوابع في العلوم، فجملة واحدة من هؤلاء تفتح آفاقاً لا تفتحها كتب
من كلام غيرهم!

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله:

٢٧. المستصفي من علم الأصول، الغزالي، ص (٦٤١).

الفصل الرابع والثلاثون^(٢٨) في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل: اعلم أنه مما أضرب بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غياته كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفني عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد، دون رتبة التحصيل^(٢٩).

ويمثل لذلك من الفقه على المذهب المالكيّ مثلاً بكتاب المدونة وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير، والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم لمن يلزم بكل ذلك منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنّه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها^(٣٠).

ثم يذكر ابن خلدون نبوغ ابن هشام في العربية ويقول:

"ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين، لا سيما مع ما قدّمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف، ولكن فضل الله يؤتاه من يشاء، وهذا نادر من

(٢٨) سيرى القارئ أنني أتعمد ذكر رقم الفصل وعبارات العلامة ابن خلدون رحمه الله على الرغم من طولها، حتى تحفظ أرقامها، وتنتشر أفكاره، فهذا الرجل عبقرى سبق زمانه، بما فتح الله عليه من علوم.

٢٩. مقدّمة ابن خلدون، ص (٧٢٧).

٣٠. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، ط (٢)، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، (١٤٠٨

هـ - ١٩٨٨ م)، ص (٧٢٨).

نوادِر الوجود، وإلا فالظاهر أنّ المتعلم ولو قطع عمره في هذا كلّه، فلا يفي له بتحصيل علم العربيّة مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟ ولكنّ الله يهدي من يشاء" (٣١).

د-البداية بالتفاصيل يُعجز المتعلّم وينقّره:

أترك البيان للخبير بالنفس البشريّة، للعقريّ ابن خلدون رحمه الله:

"وقد شاهدنا كثيراً من المعلّمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التّعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أوّل تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها، ويحسبون ذلك مراناً على التّعليم وصواباً فيه، ويكلّفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدّ لفهمها، فإنّ قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً، ويكون المتعلّم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلاّ في الأقلّ، وعلى سبيل التّقريب والإجمال والأمثال الحسيّة.

ثمّ لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التّقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتّى تتمّ الملكة في الاستعداد، ثمّ في التّحصيل، ويحيط هو بمسائل الفنّ.

وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعيّ، وبعيد عن الاستعداد له كلّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه! وإنّما أتى ذلك من سوء التّعليم.

ولا ينبغي للمعلّم أن يزيد متعلّمه على فهم كتابه الذي أكبّ على التّعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتّعليم، مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها، حتّى يعيه

٣١. مقدّمة ابن خلدون، ص (٧٢٨).

من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره؛ لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم؛ استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر؛ عجز عن الفهم، وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم! والله يهدي من يشاء" (٣٢).

ه- منهاج مختصر ثم متوسط ثم مفصل:

من المفيد التدرج في شرح العلم للمتعمم المختص إلى ثلاث مراحل: مرحلة الاختصار، ثم المتوسط، ثم التطويل، وعدم تفريق جلسات التعليم حتى تبقى في ذهن الطالب، يربط بينها وتحصل له الملكة بذلك، أترك الشرح للعلامة ابن خلدون رحمه الله حيث يقول:

"الفصل السابع والثلاثون في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته:

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسأله.

ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته.

٣٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، ط (٢)، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، (١٤٠٨

هـ - ١٩٨٨ م)، ص (٧٣٤ - ٧٣٥).

ثم يرجع به وقد شدّ، فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضحّه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفنّ وقد استولى على ملكته، هذا وجه التّعليم المفيد، وهو كما رأيت إنّما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك، بحسب ما يُخلق له ويتيسّر عليه" (٣٣).

"وكذلك ينبغي لك ألاّ تطوّل على المتعلّم في الفنّ الواحد، بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنّه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفنّ بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان؛ كانت الملكة أيسر حصولاً، وأحكم ارتباطاً، وأقرب صبغة، لأنّ الملكات إنّما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تُنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه، والله علّمكم ما لم تكونوا تعلمون" (٣٤).

أعود وأؤكد أنّ هذا للمختصّين وليس لبناء الثقافة.

و- احذر المتون المستغلّقة:

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله:

"الفصل السادس والثلاثون: في أنّ كثرة الاختصارات الموضوعية في العلوم مخلّة بالتعليم: ذهب كثير من المتأخّرين إلى اختصار الطّرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها، ويدوّنون منها برنامجاً مختصراً في كلّ علم يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ، وصار ذلك مخلّلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم! وربّما عمدوا إلى الكتب الأثمّات المطوّلة في الفنون للتّفيسير والبيان؛ فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه، وابن مالك في العربيّة، والخونجيّ في المنطق وأمثالهم،

٣٣. مقدّمة ابن خلدون، ص (٧٣٤).

٣٤. مقدّمة ابن خلدون ص (٧٣٥ - ٧٣٦).

وهو فساد في التّعليم، وفيه إخلال بالتّحصيل، وذلك لأنّ فيه تخلّطاً على المبتدئ، بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعد، وهو من سوء التّعليم كما سيأتي.

ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم، بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم، بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأنّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظّ صالح من الوقت.

ثمّ بعد ذلك، فالملكة الحاصلة من التّعليم في تلك المختصرات إذا تمّ على سداده ولم تعقبه آفة؛ فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة، لكثرة ما يقع في تلك من التّكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التّامة، وإذا اقتصر على التّكرار قصّرت الملكة لقلّته^(٣٥)، كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلّمين، فأركبهم صعباً، يقطعهم عن تحصيل الملكات النّافعة وتمكّنها، لرومن يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له { والله سبحانه وتعالى أعلم " (٣٦).

ولنحذر الكتب التي دوّنت في عصور التخلّف العلميّ عندنا، في تلك العصور أصاب التخلّف كلّ العلوم، وليس العلوم الشرعيّة فقط!

يصفها العلامة الفقيه الدكتور مصطفى الزرقا رحمه الله وصفاً دقيقاً ومنصفاً، وهو ابن المدرسة الشرعيّة العريق، والغيور عليها، يقول في التأريخ لعلم الفقه الإسلاميّ:

(٣٥) لعلّ العبارة: (وإذا اقتصر في التكرار) أي لم تتكرّر المعلومات عسّر فهمها وصعب - بالتالي - تكوين ملكة في ذلك

العلم.

٣٦. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد، تاريخ ابن خلدون، ط (٢)، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، (١٤٠٨

هـ - ١٩٨٨ م)، ص (٧٣٣ - ٧٣٤).

"الدور الفقهي السادس، من منتصف القرن السابع إلى ظهور المجلة سنة ١٢٨٦ هـ، في هذا الدور أخذ الفقه بالانحطاط، فقد بدأ في أوائله بالركود، وانتهى في أواخره إلى الجمود، وإن كان في بحر هذا الدور الواسع قد برز بعض الفحول اللامعين، من الفقهاء والأصوليين. ففي هذا العصر ساد الفكر التقليدي المغلق، وانصرفت الأفكار عن تلمس العلل والمقاصد الشرعية في فقه الأحكام إلى الحفظ الجاف، والاكتفاء بتقبل كل ما في الكتب المذهبية دون مناقشة!

وظفق ذلك النشاط الذي كان لحركة التخريج والترجيح والتنظيم في فقه المذاهب، يتضاءل ويغيب، وأصبح مرید الفقه يدرس كتاب فقيه معين من رجال مذهبه، فلا ينظر إلى الشريعة وفقهها، إلا من خلال سطوره، بعد أن كان مرید الفقه قبلاً يدرس القرآن والسنة، وأصول الشرع ومقاصده، وأدلة الأحكام.

وقد أصبحت المؤلفات الفقهية -إلا القليل- أواخر هذا العصر اختصاراً لما وجد من المؤلفات السابقة، أو شرحاً له، فانحصر العمل الفقهي في ترديد ما سبق، ودراسة ألفاظ وحفظها.

وفي أواخر هذا الدور حلّ الفكر العامي محلّ الفكر العلمي لدى كثير من متأخري رجال المذاهب الفقهية".

يكمل الدكتور مصطفى الزرقا رحمه الله:

"وقد شاعت نتيجة ذلك طريقة (المتون) في التأليف الفقهية وأصبحت هي الطريقة السائدة العامة، وحلت كتب المتأخرين فيها محلّ كتب المتقدمين القيمة في الدراسة الفقهية. وطريقة المتون هذه يعمد فيها المتأخرون إلى وضع مختصرات يجمعون فيها أبواب العلم كلها في ألفاظ ضيقة يتبارون فيها بالإيجاز، حتى تصل إلى درجة المسخ أو الألباز، وتكاد كل

كلمة أو جملة تشير إلى بحث واسع أو مسألة تفصيلية، كمن يحاول حصر الجمل في قارورة!
ويسمى هذا المختصر (متناً).

ثم يعتمد مؤلف المتن نفسه، أو سواه، إلى وضع «شرح» على المتن لايضاح عباراته، وبسط
تفاصيل مسائله، والزيادة عليها.

ثم توضع من قبل آخرين تعليقات على تلك الشروح تسمى (الحواشي) ثم توضع على تلك
الحواشي ملاحظات تسمى (تقريرات).

وتتضمن تلك الشروح والحواشي والتقريرات كثيراً من المناقشات اللفظية في حل
العبارات والألفاظ دون المقاصد الجوهرية في العلم، وقد يضع الموضوع الواحد أو يتشتت
ما بين المتون والشروح والحواشي والتقريرات.

ولا نعني بهذا خلو الحواشي من الفوائد العلمية، بل هي مشحونة بكثير من التحليل
والتحقيق والتمحيص والمباحث ذات الشأن، ولكنها قد مزج فيها اللباب بالقشور، وعانى
الفقه فيها سقم الطريقة.

وتاريخ المتون في الحقيقة يرجع إلى أقدم من هذا العصر، ولكنها عندما ظهرت قديماً كان
الغرض منها حكياً، وهو جمع المسائل الأولية البسيطة في متون صغيرة، بعبارة سهلة، لتكون
مبادئ لشدة الفقه، على نحو (الآجرومية) في علم النحو، وهذا الغرض يقضي بأن يبقى
المتن مختصراً بسيطاً سهلاً للمسائل الأولية، مقصوراً عليها للغاية التعليمية، فلا توضع عليه
الشروح الواسعة، ولا الحواشي المعقدة.

ولكن المتون انقلبت في العصر المبحوث عنه إلى طريقة عامة تعقيدية في تأليف الفقه؛ حتى
إن من يريد أن يترك له أثراً وذكرًا علمياً لا يفكر أن يخدم العلم بمؤلف مستقل يعتمد به إلى
التجديد في أسلوب الفقه ولغته، وفي تنقيحه وتقسيمه، وترتيبه وتبويبه، والرجوع بمسائله
المشتتة في غير أبوابها إلى أبوابها ومناسباتها، فيضيف إلى جهود المتقدمين الحميدة جهوداً

جديدة، بل كان كل مؤلف متأخر يحصر جهده في وضع حاشية على شرح، أو شرح على متن معقد، أو يضع متناً على نسق سائر المتون الاختزالية اللغزية التي تقدمته.

ومن هنا نرى أنّ طريقة المتون بدأت قديماً معقولة الفكرة والغرض لوضع مبادئ العلم البسيطة تسهيلاً على المبتدئين، ثم أصبحت بالعوامل التقليدية على أيدي المتأخرين أشواكاً وتعاريج توغر بها طريق الفقه، واعتاص على غير ذوي الاختصاص، وأصبحت دوحة الفقه في أخريات هذا الدور تحمل الورق الكثير، عوضاً عن الثمر اليانع^(٣٧).

طبعاً أطلت النفس في هذا العنوان، لانتشار طريقة قراءة المتون في الدراسات الشرعية، وفيها يتم التركيز على (حلّ العبارات) أكثر من التركيز على فهم العلم ومناقشة أفكاره ومسائله، حيث يضيع الوقت والجهد والتركيز في فكّ طلاسّم بعض المتون و(حلّحلة) العبارة، وتفكيكها، كأنها شيفرة أو لغز، وقد كنّا نعتقد أنّ الكتاب كلّما صعبت عبارته كلّما كان دسمه أكثر، واحتاج إلى أستاذ حتّى يشرحه، وإلاّ فما فائدة الأستاذ إذا كانت عبارة الكتاب واضحة؟!]

وكم أضعنا من جهود في فكّ عبارات تلك الكتب، كان الأجدى بنا لو ركّزنا على فهم ذلك العلم وتفعيله، وتطبيق قواعده على المستجدات من المسائل، لكان أكثر فائدة لنا ولعلمينا، ولدنيانا وآخرتنا^(٣٨) {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}

[الكهف: ١٧]

٣٧. المدخل الفقهي العام، الزرقا، ص (٢١١ - ٢١٤).

٣٨. للتوسّع والاطلاع على تحليل أسباب تراجع الفقه وانتشار التقليد، والتركيز على كتابة المؤلفات صعبة العبارة، يرجع لكتاب (تاريخ التشريع لمحمد علي السائس) الدور السادس ص ١٣٤-١٣٩ وقد كان هذا الكتاب مقرراً علينا في كلية الشريعة في الأزهر، وهو متوفّر على النت.

المبحث الرابع: ثمرة الثقافة الفاعلة:

يمكننا تقسيم ثمرة الثقافة الفاعلة إلى قسمين: علم وعمل، أما العلم والمعرفة المتولدة عن الثقافة الفاعلة؛ فينبغي أن يكون وعياً مميّزاً فيه موضوعية وعمق بفهم الواقع، ويترتب عليه قرارات راشدة، فالمطلوب فهم الواقع والمتوقّع وما ينبغي عمله، وإن أراد صاحب الثقافة الفاعلة كتابة بحث علمي، فيجب أن يأتي بإضافة معرفية، ولا يكون تكراراً لما سبق. وأما العمل فهو ثمرة العلم وإلاّ فما فائدة علم بلا عمل؟! وسنبسط القول قليلاً بهذين الجانبين:

أولاً: الإضافة المعرفية:

مازلت أذكر أستاذي الذي أشرف عليّ في مرحلة الماجستير، جزاه الله خيراً، عندما أمسك بإحدى خطط البحث المقترحة للماجستير: وكانت حوالي سبع صفحات، قرأ الخطة ثم أشار إلى جزء صغير فيها وقال: "هنا عملك!" يقصد: هنا العمل الحقيقي، والباقي تكرار لمن سبقك.

تأمّلت تلك الخطة فوجدتُ كلامه صحيحاً ودقيقاً، ففي ذلك الجزء الصغير الذي أشار إليه من الخطة، كانت النوازل والمستحدثات المعاصرة التي تحتاج إلى اجتهاد جديد.

انتشرت في ديار المسلمين -والحمد لله- الدراسات العليا، وكتابة البحوث خلال مراحل التعليم كلّها، كما انتشر التأليف والكتابة، فلا يكاد يوجد عالم أو طالب علم، إلاّ وله مقالات ومؤلفات، وهي ظاهرة ممتازة، فالعلم ينضج بالكتابة والتصنيف، لكن ما هي قيمة هذه الكتابات العلميّة؟ وما الإضافة المعرفية التي تقدّمها؟!

لا شكّ أنّ النوعية تأتي في طيات الكميّة، لكن أن يكون أغلب المؤلفات غناء وتكراراً، فهذه ظاهرة تستحقّ النقد والتطوير، لذلك علينا أن نشجّع الباحثين على الإبداع والاجتهاد الجديد، فماذا نقصد هنا بالإبداع؟

نقصد بالإبداع إيجاد المفقود، وتطوير الموجود، إيجاد المفقود يعني الحلول المفقودة للمشكلات التي نعاني منها، علمياً وعملياً، فالحلول هي المفقودة، حلول المشكلات العملية والعملية.

وتطوير الموجود: يعني أن الحلول موجودة، والباحث اخترع أو اكتشف حلاً أكثر فائدة، فطور الحلول الموجودة، وطور العلوم النظرية الموجودة.

وعندما تساهم البحوث العلمية بدورها المنوط بها، ينعكس ذلك على الحياة العلمية والعملية، فتتطور الأنظمة والأفكار والمنتجات، وتنهض البلاد.

لكن بعض المتخلفين حتى ممن يحملون الألقاب العلمية، ويشرفون على الباحثين، ويشاركون في مناقشة البحوث -مع الأسف- يُخرجون هذه البحوث عن مقصودها وهدفها ولبها وفائدتها الحقيقية، فيمنعون الباحث من الترجيح أو إبداء الرأي، ويوبخونه ويسخرون منه لو ظهرت شخصيته في البحث، بدلاً من تشجيعه على الاجتهاد والاكتشاف والإبداع والإتيان بالجديد!

حتى إن أحد (الدكاترة) كان يقول: "الترجيح بين أقوال العلماء قلة أدب"! طبعاً بمعيار هذا الدكتور كل علمائنا -حاشاهم- قليلو أدب، فكتبهم طافحةً بترجيح مذاهبهم، والرد على المخالف لهم من بقية المدارس، أو من يخالفهم ضمن المذهب الواحد.

وبهذا المنهج الجامد يفقد البحث العلمي فائدته وهدفه، فنحن نستورد -مع الأسف- بعض الوسائل المتطورة من الأمم المتطورة بذلك المجال، ثم نخضع هذه الوسيلة المتطورة لمنظومتنا المتخلفة، بدلاً من إجراء التعديلات المطلوبة في واقعنا المتخلف، لتعمل الآلة بكفاءة وتؤدي ثمارها المرجوة.

فتصبح تلك الآلة -مع الأسف- جزءاً من الواقع المتخلف، لأننا قتلنا في هذه الوسيلة أهم ما فيها، فتصبح كآلة العقيمة التي تعمل وتعمل ولا تنتج شيئاً!

ويجب أن نعمل على أن تصبح بحوثنا دائماً (مركّزة)، بدلاً من رُكام الأوراق التي تضيّع الجهود والأوقات والأموال، وتخلو من العطاء الجديد!

فكثير من الكتب الإبداعية التي أحدثت ضجّةً ونقلة نوعية في الوسط العلمي العالمي؛ هي عبارة عن مقالة أو كُتيب صغير!

"لكننا قومٌ مفتونون بالكمية على حساب النوعية" كما يقول أستاذنا د. عبد الكريم بكار، فالتفاخر الممجوج هو التفاخر بعدد الصفحات لا بنوعية الكتابة والجديد فيها! ولطالما سمعنا أنّ الجامعات العالمية المرموقة تعطي درجة الدكتوراه على بحث صغير الحجم، (عدّة ورقات) فلا نحتاج لتكرار المعلومات التي سبقت دراستها، وليس لنا فيها رأي جديد^{٣٩}.

من مفاتيح الإضافة المعرفية:

بالإضافة لما مضى من تحريضٍ على العطاء العلمي، وكسر قيود الجمود، هناك مجموعة أفكار وقواعد أعتقد أنّها مهمّة في فتح مجالات الإضافة المعرفية:

أ- ينبغي أن تكون الكتابة أو البحث وسيلة للإجابة عن سؤال أو إشكال أو حلّ مشكلة، فهو إيجاد مفقود أو تطوير موجود، وليس البحث هدفاً في حدّ ذاته، ومن باب أولى مجرد تكرار وجمع المعلومات الموجودة ليس فيه إضافة معرفية ذات بال!

ب- يجب التمييز بين الدين والتدين العرفي الاجتماعي: فالتدين هو امتزاج أفهام وأعراف المسلمين وعاداتهم الاجتماعية المتعلقة بكيفية تنفيذ بعض تعاليم الدين.

وبين الدين وبين التاريخ: فالتاريخ هو تصرّفات البشر، وبخاصّة الطبقة الحاكمة.

^{٣٩} ينظر: كتاب بصراحة، تحت عنوان: لماذا الدراسات العليا؟ ومقال: دكتوراه بيضع ورقات! د. حذيفة عكاش

وبين الدين وبين اجتهادات البشر في فهم الدين: فالشريعة (الكتاب والسنة) صالحة لكل زمان ومكان، وليس فهم البشر لهما هو الصالح لكل زمان ومكان.

وبين الدين الثابت والقطعي والمبادئ الخالدة، وبين الوسائل والأدوات والإداريات والترتيبات والنظم المتغيرة: فالثوابت تمثل الأصالة، والمتغيرات تمثل المعاصرة.

فمحكمات وثوابت الشريعة التي تم الإجماع الحقيقي عليها لا تتغير، لأنها بمثابة الأسس التي قامت عليها الشريعة، كأركان الإيمان، وأركان الإسلام، وأمّهات المحرمات والواجبات، والقيم والأخلاق الكبرى، ومن تهجم على الثوابت فهو دخيل يريد الهدم لا البناء، ومشكلتنا هنا مع صنفين: صنف يريد توسيع دائرة المحكمات، فيجعل الظننات يقينيات، وصنف آخر يريد اقتحام المحكمات وتوسيع دائرة الظننات وجعل المحكمات ظننات وخلافيات!

ج- تغير الزمان وتغير الواقع: والإتيان بما يوافق ويلائمه ويصوبه ويسدده ويرشده، فكثير مما قيل في السابق لا يناسب الواقع، لتغيره الجذري، وهذا لا يعني تسويغ الانحرافات وشرعتها، بل يعني فهم الواقع بعمق، قبل الحكم عليه قبولاً أو رفضاً، تأييداً أو إنكاراً، وإيجاد وسائل وأدوات ونظم معاصرة أكثر كفاءة من وسائل وأدوات ونظم الماضي.

د- لا تنظر للقائل، بل انظر للقول: وهذه القاعدة قديمة فقد كان علماءنا يقولون: (لا يُعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله) وهو يُنقل عن علي رضي الله عنه.

وهذه القاعدة ليست تحريضاً على عدم الاستسلام للأسماء الكبيرة فقط، بل هي حث على عدم استصغار الأسماء غير الشهيرة كذلك، فكم في السواقي ما ليس في البحار.

كما أن مقصود هذه العبارة الأول التحفيز على أعمال التفكير في الأقوال، وعدم التسليم بها، مهما علا كعب صاحبها، ومهما ارتفعت مكانته، "فليس هناك من هو أقل من أن يُفيد، وليس هناك أكبر من أن يستفيد"، و"ليس منا إلا ردّ وردّ عليه، إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام"، كما قال إمام دار الهجرة رحمه الله.

هـ- لا تغترن بكثرة القائلين: فالحق ما وافق الدليل من غير التفات إلى كثرة الموافقين، أو قلّتهم، فالحق لا يُوزن بالرجال، وإنما يوزن الرجال بالحق، فقلّة القائلين بفكرة أو كثرتهم، لا يدلّ على صحّة القول أو فساده، بل كلّ قول يُحتجّ له، ولا يُحتجّ به، خلا قول المؤيّد بالوحي عليه الصلاة والسلام.

وكثيراً ما يستكثر القائل ويستقوي بكثرة القائلين والموافقين لقوله، فيقول والجمهور على قول كذا، ومخالفه يقول الشيء نفسه! لذلك هناك ما يسمّى عندنا بـ (دعاوى الإجماع)، أي ادّعاء انعقاد إجماع العلماء على قول، والحقيقة وجود مخالفين، يتمّ تجاهلهم، أو استصغارهم لو خالفوا والتقوي بأقوالهم لو وافقوا! وهي مغالطة منطقيّة تُسمّى: الاحتكام للكثرة. ولهذا قال بعض السلف: (عليك بالحق، ولا تستوحش من قلّة السالكين، وإيّاك والباطل، ولا تغترّ بكثرة الهالكين).

ثم إنّ التقليد الأعمى للأكثرية مذموم في كتاب ربّنا سبحانه وتعالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ وإن هم إلا يخرصون} [الأنعام: ١١٦] والنتيجة: {أكثر الناس لا يؤمنون} [هود: ١٧]. ويبيّن السبب سبحانه وتعالى بقوله: {أكثر الناس لا يعلمون} [الأعراف: ١٨٧] و{أكثرهم لا يعقلون} [الحجرات: ٤] و{كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون} [يونس: ٩٢].

وحتى نكون منصفين نقول: للكثرة والجمهور وزن محترم في العقول السليمة، فمخالفة الغالبية ليست سهلة، وليست ممنوعة في الوقت نفسه، فكن على حذر عندما تخالف جمهور العلماء!

و- كم ترك الأوّل للأخر: فالمعرفة تراكميّة، فمن المنطقيّ أن يبني اللاحق على السابق، ويستفيد منه، ويضيف عليه، لذلك علينا إلا نصادر فهم المعاصرين لحساب القدماء، في المتغيّرات طبعاً.

ثانياً: النضال بالإصلاح والتوعية والتعليم وإطلاق المبادرات:

من أهمّ واجبات المثقّف المنشود الانشغال بما يحتاجه مجتمعه، وعدم الانعزال عن آلام وآمال مجتمعه، والوقوف مع القضايا العادلة مع المظلومين والمقهورين والضعفاء، والمشاركة بالتوعيّة والتنوير والإصلاح، وإلا كانت الثقافة باردة غير ذات نفع. وهذا لا يعني الانهماك بالهمّ اليوميّ، ومتابعة الأخبار والحوادث الصغيرة والكبيرة! فقد ينشغل الباحثون والمثقفون والمفكّرون بقضايا مجتمعاتهم، ويتخذون برزخاً بينهم وبين استهلاك اهتمامهم وجهدهم بمتابعة الأحداث اليومية، وذلك لانشغالهم بما يهمّ مجتمعاتهم، والعزلة الجزئية لحلّ مشكلات مجتمعه، فهو مشغولٌ عنهم بهم! وإن كان التوازن واستمرار متابعة الأحداث باعتدال بقدر لا يشغلهم عن مهمّاتهم الكبرى هو الأوّل.

أ- الإصلاح بين النخبة والعامّة:

لا شكّ أنّ أشرف المهن الإصلاح، وهي مهمّة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم سادة المصلحين عبر التاريخ، ولا يتمّ صلاح إنسان ما لم يمارس الإصلاح، ولا طعم للحياة ولا سعادة دون هدف سام وكفاح والعيش لقضية. ولا قضية أشرف من الإصلاح، والمساهمة في نهضة الأمة وسعادتها، وهذه المهمة منوطة بالنخبة المثقفة، وهذا هو سبب التركيز على بناء النخب الواعية، بأن تتكوّن عندنا طبقة مثقفة واعية تساهم في قضايا أمّتها، وتشارك شعوبها آلامها وآمالها، وتناضل في سبيل قضاياها.

تحت شعار: {إِنْ أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ} [هود: ٨٨]

فحينما تريد أمة أن تنهض، لا بدَّ أن تبدأ بإصلاح الإنسان، وأكثر شيء يؤثّر في الإنسان ثقافته، عبر مراجعة أفكار الأمة وطُرق التفكير والمحاكمة العقلية لديها، فتقوي الأفكار الصالحة، وتقتلع الأفكار الفاسدة.

فنحن نعيش ضمن العوالم التالية:

١- عالم الأفكار: وهي الأفكار والتصوّرات والاعتقادات والمفاهيم والعادات والتقاليد والأعراف والنظم.

٢- عالم الأشياء: وهي المواد الأولية والآلات والمصنوعات، وكل ما عدا الإنسان، من المواد الخام والمصنعة.

٣- عالم العلاقات: وهي الأواصر النازمة للصلوات بين البشر.

٤- عالم المشاريع: وهي الأعمال والمهن والأنشطة التي يقوم بها البشر.

والإصلاح يبدأ من الأوّل (عالم الأفكار)، لأنّ الأفكار تؤثّر في الإنسان، والذي سيؤثّر بسلوكه في بقية العوالم ويغيّرها.

لذلك نحن بحاجة إلى المثقفين المصلحين ومصلحي المثقفين، فكلّما تعقّدت الحياة يتعقّد معها كلّ شيء، ومنه شروط المصلحين، فانتشار العلم والتعليم وارتفاع المستوى الثقافي لدى الناس، يستلزم ارتفاع مستوى المصلحين ثقافياً، حتّى يتمكنوا من التأثير المطلوب في الناس، والمطلوب المثقف الذي يحمل هموم أمته، ويناضل في سبيلها، لا الأنانيّ المشغول بنفسه، ولا المتشائم الذي أخذ "إجازة مفتوحة" عن العمل الإصلاحيّ.

وبناءً على ما سبق فإنّ الإصلاح يبدأ بثقافة النخبة: وهم من تشكّلت ثقافتهم بطريقة واعية موجّهة تمكّنهم من قيادة غيرهم، والتأثير فيهم، بينما الثقافة الشعبيّة: تتشكّل بطريقة تلقائيّة دون شعور ولا إرادة عبر تلقين المجتمع لهم، ويتشعّب بها العامي ويتشبّث بها، وتغيّرها صعب.

الغريب في الموضوع أنّ العامي غالباً ما يكون أكثر تعصباً لأفكاره من المثقف، لأنّ المثقف يعرف أنّ هذه وجهة نظر، وهناك وجهات نظر أخرى، أمّا العامي فيصارع من أجل أفكاره، وكذلك الحال لدى المقلّد والمجتهد، فالمقلّد أكثر تمسكاً بالآراء التي يعتنقها أكثر من المجتهد. وكذلك الأمر عند المنتمين لجماعة أو حزب أو تيار، وعندهم أيديولوجيا معينة، فهم أشدّ التزاماً بها من واضعها، لأنّه يعلم أنّها اختيارات ظنيّة، لذلك مناقشة المؤدّج كالضرب على الحديد البارد، كما وصف الإمام الغزالي رحمه الله مناقشة المقلّد:

"شُرط المقلّد أن يسكت ويسكت عنه، لأنّه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان أهلاً له كان متبّعاً لا تابعاً، وإماماً لا مأموماً، فإنّ خاض المقلّد في المحاجة فذلك منه فضول، والمشتغل به كضارب في حديد بارد" (٤٠).

فمهمّة النخبة تغيير الثقافة الشعبيّة الخاطئة، وإذا لم يفعلوا فإنّهم: يقضون على إمكانيّة انطلاقة حضاريّة راشدة، فالنهضات على مستوى الدول تحتاج اشتراكاً ومساهمة من طبقات المجتمع كلها. وستكرّر الأخطاء، وتصل لبيوتنا لأننا جزء من هذا المجتمع، ولا نستطيع العيش بمنأى عنه، فبالنهاية سنضطر للاحتكاك بمجتمعاتنا، وسينعكس تقدّم المجتمع أو تخلفه على تفاصيل حياتنا وفي (حديث السفينة) عبرة. ثم ما فائدة ثقافة كبيرة تبقى في صدر صاحبها؟ سيبقى نفعها قاصراً عليه غير متعدّد، قال صلّى الله عليه وسلّم:

(لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه) (٤١).

٤٠ () رسائل الإمام الغزالي، ص ٢٣٩

٤١. رواه البخاري.

والنخبة هم القاطرة التي تجرّ عربات القطار، فعليهم المعول في إصلاح بقية أفراد المجتمع، لذلك نحن نركّز على إصلاح ثقافة النخبة، فبصلاحهم يصلح المجتمع، لأنّ العامّة يتبعون النخبة ويثقون بهم عادة.

ب- العامّة لا يتدعون:

قد تتبعت ظاهرة أستطيع التعبير عنها بالقاعدة التالية: (العامّة لا يجروون على الابتداء) فكلّ ما يفعلونه، وبخاصّة في مجال الدين، قد سمعوه أو قرؤوه من مرشدين دينيين. فكثير من السلوكيات الدينيّة التي كنت أستغربها من بعض العامّة، وأعرف أنّ (هذا السلوك الديني) غير وارد في صحيح السنّة النبويّة، والعجيب أنّ هذه (السلوكيات والتعاليم الدينيّة) كانت تمرّ معي -فيما بعد- في بعض الكتب الدينيّة، ودليلها غالباً ضعيفٌ أو أنّها بدعة غير واردة في القرآن الكريم، ولا في الثابت من السنّة النبويّة، ومع الأيام ترسّخت عندي هذه القاعدة: (العامّة لا يجروون على الابتداء).

فلو لم يقرؤوا هذا الأمر الدينيّ، أو يسمعوه من المختصّين لما أقدموا على فعله، طبعاً لا أقصد هنا المنهيات الشرعيّة بطبيعة الحال، بل أقصد بعض تفاصيل العبادات الدينيّة، التي يحرص عليها بعض المتديّنين ولا يفعلها الراسخون والمحقّقون من علماء الدين! وهذا ينطبق على بقية العلوم، فالعامّة لا يجروون على الافتتاحات على العلوم، لا بدّ أنّ أحد النخب الثقافيّة أرشدهم إلى هذا السلوك أو أخبرهم بهذه المعلومة، فالثقافة المنتشرة تمّ تمريرها وإقرارها من النخب الثقافيّة في المجتمع، فإذا أردنا إصلاح ثقافة المجتمع، فعلينا بداية إصلاح ثقافة النخب، فهم قادة الرأي وهم الأكثر تأثيراً في ثقافة مجتمعاتنا.

خاتمة:

ها قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول الخاص بالمقدمات المنهجية من سلسلة (بناء الثقافة الإسلامية من التكديس إلى الفاعلية).

وقد استعرضنا خلاله أهمية بناء العقلية المنهجية، وشروط وعوامل بناء هذه المنهجية من انفتاح فكري، وامتلاك عقلية نقدية، وتكوين استقلال فكري، ثم تحدثنا عن كيفية ذلك عبر ممارسة التفكير والتأمل بالحياة والمواءمة بينها وبين المعلومات المكتسبة بالقراءة المنهجية. وأهمية تفعيل هذه المنهجية في العقل والفكر والعطاء المعرفي، والفاعلية في الواقع والمشاركة بالإصلاح والنهوض.

في الجزء الثاني سنبدأ بأهم مكوّن من الثقافة الإسلامية وهي العلوم الإسلامية.

سيرة علمية للمؤلف

- د. حذيفة عكاش، باحث ومحاضر وإعلامي إسلامي، له عدة مؤلفات ومقالات ومحاضرات منشورة، وبرامج حوارية وفكرية.
- من مواليد سورية، حمص، ١٩٧٨ م، يقيم في استنبول.
- مدير مؤسسة رؤية للفكر، وهي مؤسسة تعتنى بالفكر النهضوي.
- المشرف العام على أكاديمية رؤية للفكر.
- مهتم بالفكر الإسلامي وقضايا التجديد والنهضة والحضارة والسياسة الشرعية.

الشهادات:

- دكتوراه شريعة إسلامية قسم الفقه المقارن، بحث بعنوان: (الضوابط الشرعية للأخبار في وسائل الإعلام) من جامعة أم درمان الإسلامية، السودان (٢٠١٧ م).
- ماجستير شريعة إسلامية قسم الفقه المقارن، بحث بعنوان: (الضوابط الشرعية للإعلام المرئي) جامعة طرابلس في لبنان (٢٠١٤ م).
- دبلوم فقه مقارن من جامعة بيروت الإسلامية، في لبنان (٢٠٠١-٢٠٠٢ م).
- إجازة جامعية في الشريعة الإسلامية من كلية الشريعة في الأزهر في مصر (٢٠٠٠ م).

- ثانوية شرعية من وزارة الأوقاف السورية (١٩٩٦م).
- دورات ومؤتمرات كثيرة حضوراً ومشاركة في المجالات الشرعية والفكرية والتربوية والتعليمية والإعلامية.

السيرة العملية:

- مدرّس في عدة جامعات لمادّي الثقافة والفكر الإسلامي ومادة الإعلام والدعوة.
- مدير عام (مؤسسة رؤية للفكر) استنبول.
- إلقاء دورات ومحاضرات متعددة في علوم الشريعة والسياسة الشرعية والفكر الإسلامي وفن الإلقاء والإعلام.
- مدير للمكتب الإعلامي في رابطة علمائية شرعية سابقاً.
- إعداد وتقديم عدة برامج حوارية وتلفازية ومسابقات في العديد من وسائل الإعلام.
- خطيب ومدرس في وزارة الأوقاف السورية ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- مدرّس لمادة التربية الإسلامية في دبي عشر سنوات.
- مؤلف ومحقّق في شركة تنتج الموسوعات العلمية وتصدرها في برامج حاسوبية.
- عضو عدة روابط ومنظمات شرعية وإعلامية وفكرية.

من برامجه التلفزيونية:

- برنامج (بصراحة)
- برنامج (أخطاء في التفكير)
- برنامج حوارى مع علماء ومفكرين: (أفكاراً للمستقبل)
- بودكاست صراحة
- له مشاركات في برامج إعلامية مختلفة.

من مؤلفاته:

(أغلبها منشور على شبكة المعلومات)

- ١- ضوابط التيسير في الفتوى.
- ٢- تقويم النظرية الحركية للشهيد سيد قطب (تحت النشر).
- ٣- التصوف (نظرة جديدة).
- ٤- سجلات في التجديد الديني.
- ٥- بناء الثقافة الإسلامية من التكديس إلى الفاعلية.
- ٦- أخطاء التفكير المعيقة للتهوض.
- ٧- مستقبل هوية حضارتنا الإسلامية والموقف من الحضارة الغربية.
- ٨- بصراحة (في السياسة ونظام الحكم وأنماط التدبير وضرورة التجديد لتحقيق نهضة المسلمين).
- ٩- مقاصد الإيذان بعوالم الغيب والشهادة في توحيد عقيدة الأمة وإعادة شهودها الحضاري.
- ١٠- فن التمثيل، أحكامه وضوابطه الشرعية.
- ١١- التصوير المعاصر، أحكامه وضوابطه الشرعية.
- ١٢- الغناء والموسيقا والمؤثرات الصوتية، أحكامها وضوابطها الشرعية.
- ١٣- عمل المرأة في الإعلام المعاصر، أحكامه وضوابطه الشرعية.
- ١٤- الأخبار في وسائل الإعلام، أحكامها وضوابطها الشرعية.
- ١٥- الضوابط الشرعية لحرية التعبير والإعلام.
- ١٦- مدخل لمهارات التعامل مع وسائل الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي (تحت النشر).

الفهرس

المبحث الأول: لماذا بناء الملكة العقلية المنهجية الفاعلة:

أولاً: لماذا هذا الكتاب؟

- ٧..... ثانياً: معاني الثقافة:
- ٩..... ثالثاً: معنى المثقف وغيره من الألقاب المشابهة:
- ١١..... رابعاً: من التكديس إلى التفعيل:
- ١٣..... خامساً: أهمية المنهج:
- ١٣..... سادساً: هل تكوين الملكة الاجتهادية ممكنة؟
- ١٤..... سابعاً: الذكاء المكتسب:
- ١٦..... ثامناً: الإسلامية: الانتفاء إلى هوية الأمة والدين الغريب:
- ١٨..... المبحث الثاني: شروط بناء الملكة العقلية المنهجية:
- ١٨..... أولاً: الانفتاح الفكري:
- ٢٢..... أ- حب المعرفة والاحتفال بالجديد:
- ٢٢..... ب- التسامح وسعة الصدر:
- ٢٣..... ثانياً: العقلية النقدية والشك المنهجي:
- ٢٣..... أ- العقلية النقدية:
- ٢٤..... ب- الشك المنهجي:
- ٢٥..... ثالثاً: الاستقلالية الفكرية:
- ٢٦..... أ- قيد المحيط:
- ٢٦..... ب- قيد الانتفاء والتمذهب:
- ٢٨..... ج- قيد الذاكرة:
- ٢٩..... د- قيد التطرف العاطفي:

- هـ - الانتماء الديني وعلاقة العلم بالدين: ٢٩
- المبحث الثالث: كيفية بناء العقلية المنهجية: ٣٠
- أولاً: التأمل والتفكير: ٣٠
- أ- اكتشاف السنن (القوانين) والعلاقات: ٣١
- ب- فهم التاريخ والواقع والمستقبل: ٣١
- ثانياً: القراءة المنهجية: ٣٣
- ١- أفضل أنواع القراءة: ٣٤
- ٢- تحصيل الملكة: ٣٦
- ٣- الثقافة التمازجية: ٤٠
- أ- كل علم هو الأفضل عند أهله: ٤٤
- ب- الاختصاص الثنائي: ٤٥
- ج- مطالب كثيرة تقتضي التخفيف: ٤٨
- د- البداية بالتفاصيل يُعجز المتعلم وينفره: ٥١
- هـ- منهاج مختصر ثم متوسط ثم مفصل: ٥٢
- و- احذر المتون المستغلقة: ٥٣
- المبحث الرابع: ثمرة الثقافة الفاعلة: ٥٨
- أولاً: الإضافة المعرفية: ٥٨
- من مفاتيح الإضافة المعرفية: ٦٠

ثانياً: النضال بالإصلاح والتوعية والتعليم وإطلاق المبادرات: ٦٣

أ- الإصلاح بين النخبة والعامّة: ٦٣

ب- العامّة لا يتدعون: ٦٦

خاتمة: ٦٦

سيرة علمية للمؤلف ٦٧

الفهرس ٦٩